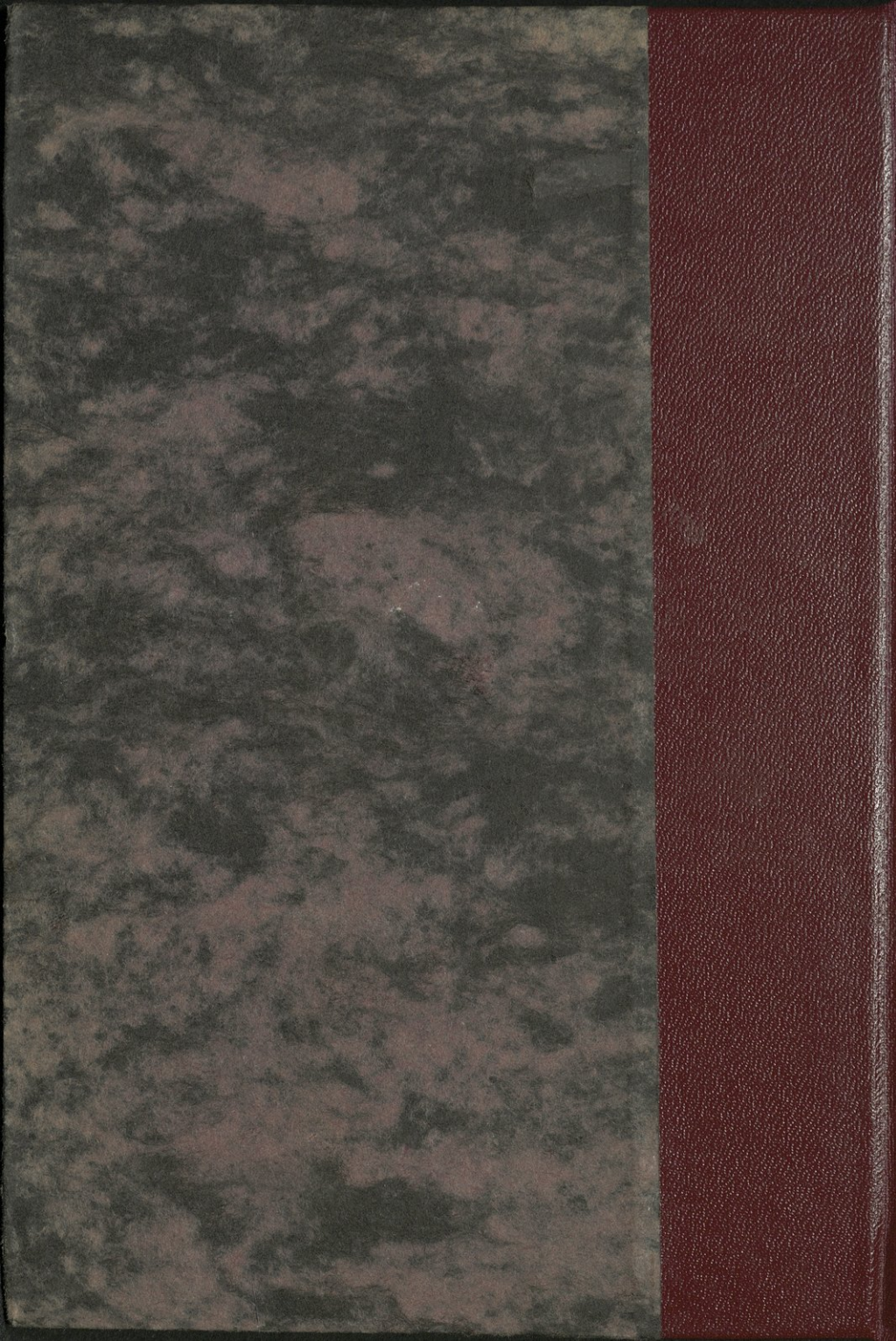
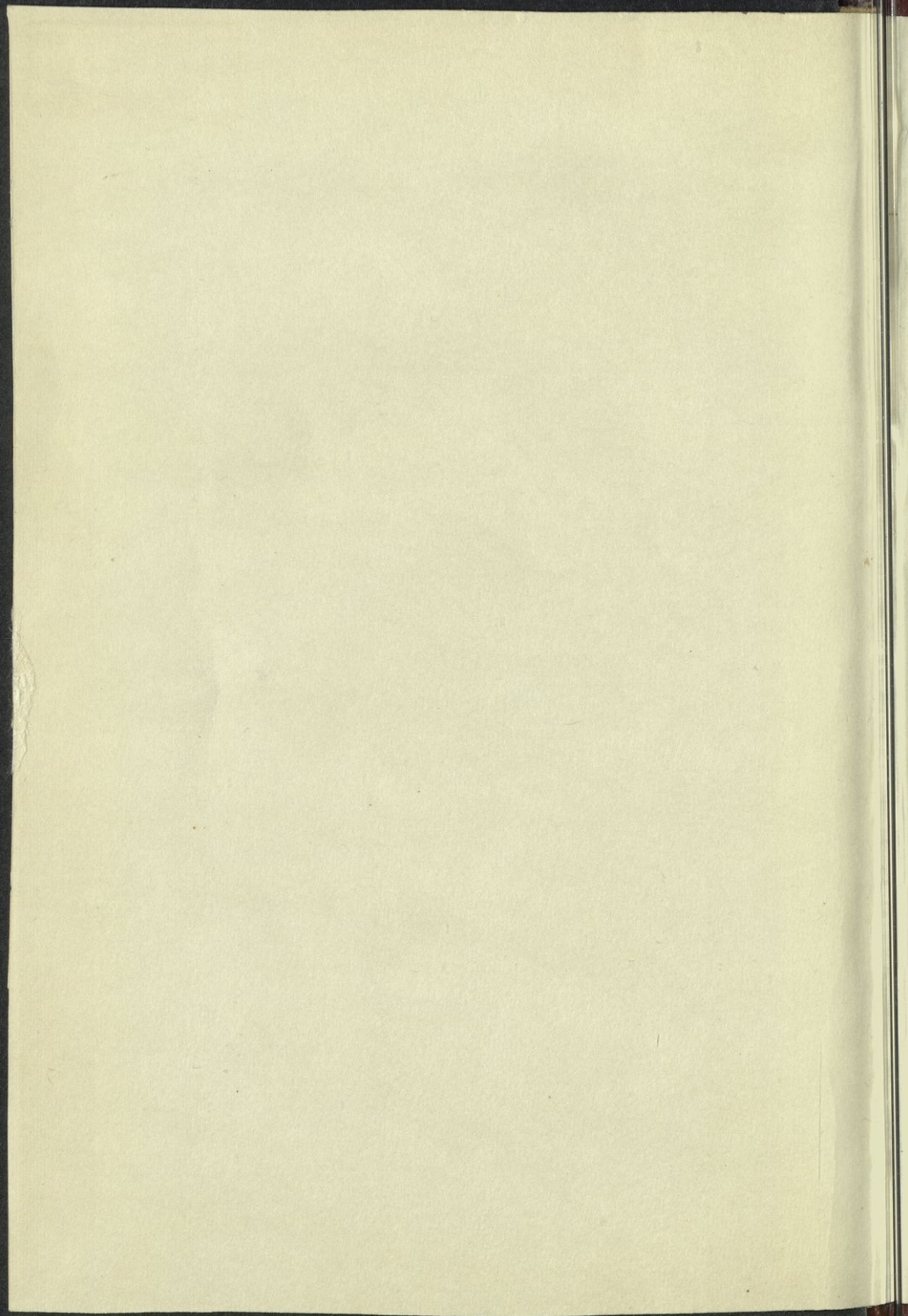
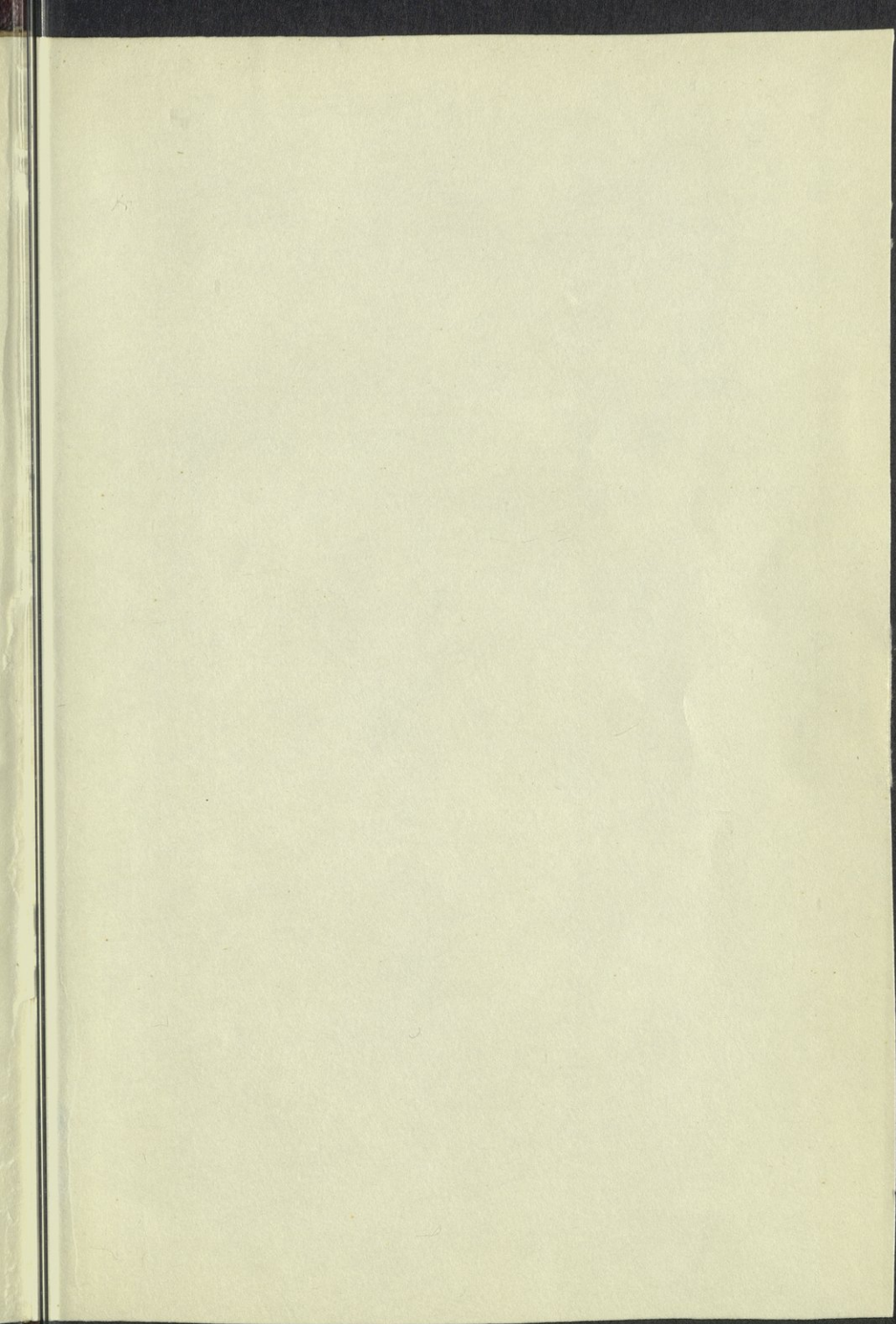
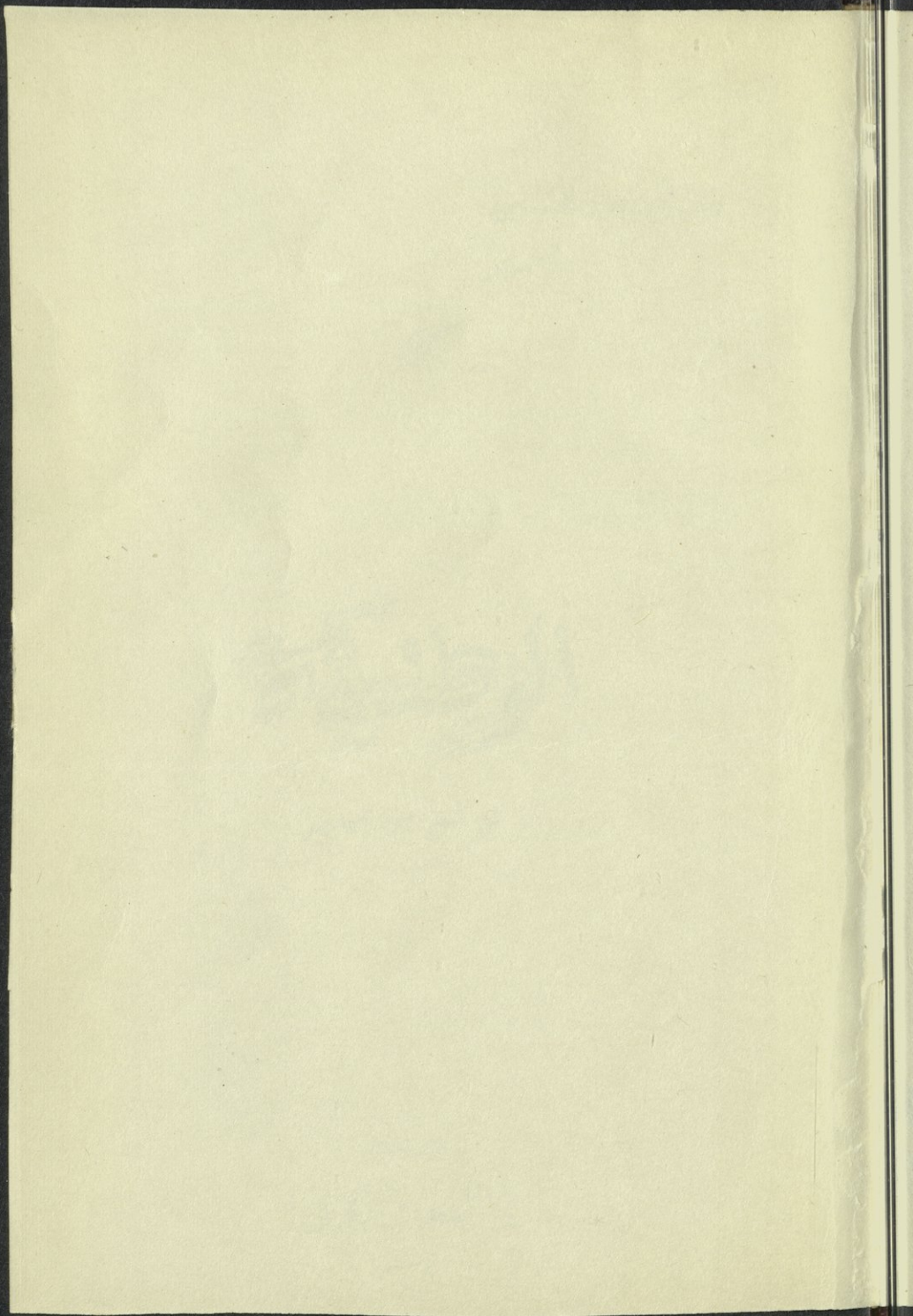




AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT







A.

892.71
I211YswA

Keep over

زين العابدين السنوسي

بناحي

4/4

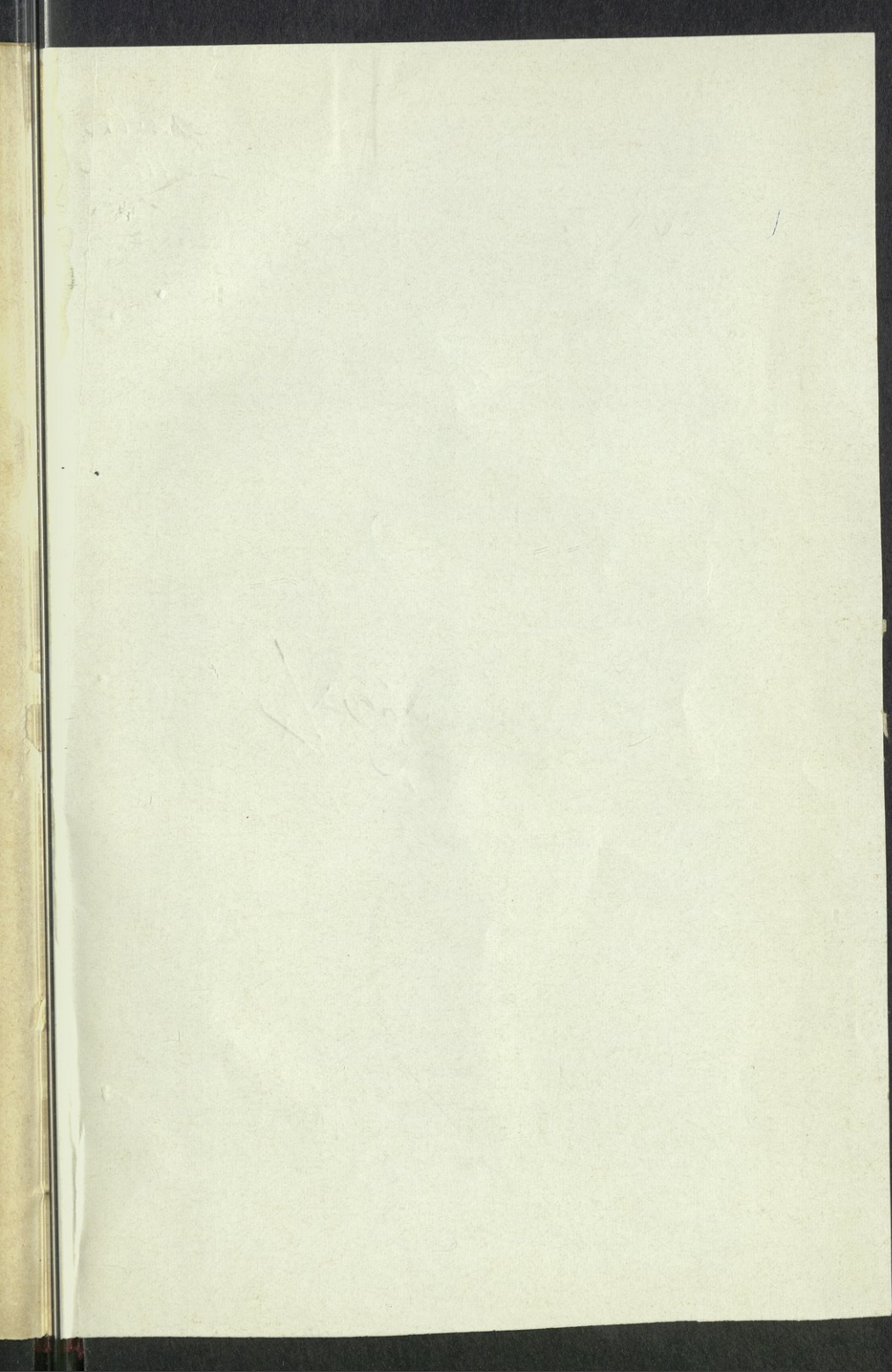
الوطنية

في شعر ابن حمديس

منشورات

دار المغرب العربي

تونس

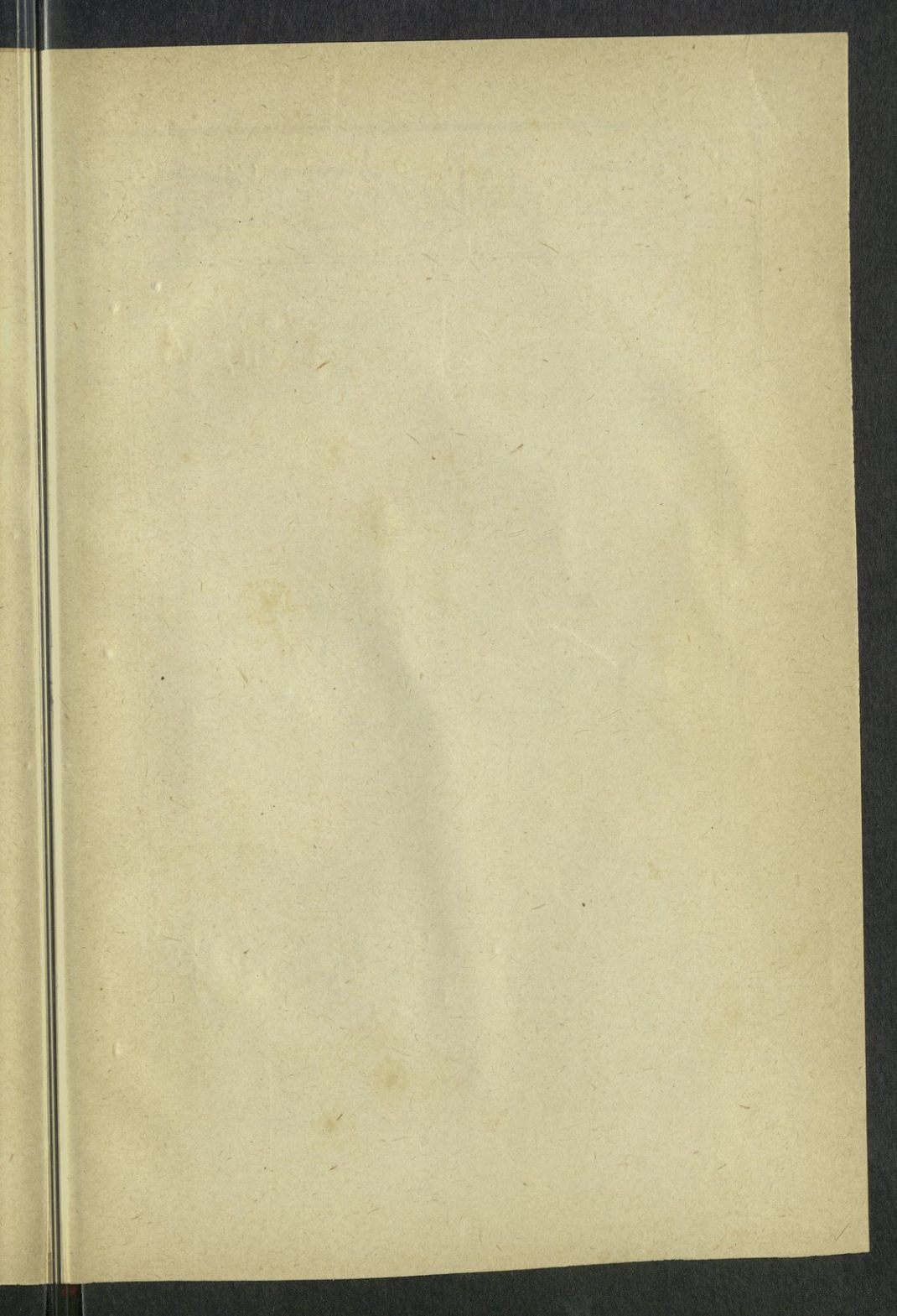


في الأدب الغزفي وديوان ابن جُمَيْس

892.71
I 211YsuA

الوطنية

زين العابدين السنوسي
بقلم



الاهداء

هاته باكورة من دراسات قد كتبتها سنتي ٣ و ١٩٤٤ وأنا في الوسط من بلاد الروم (ايطاليا) مدة تفرغى عن وطني تونس من أفريقيا الكبرى العزيرة .

لتعلق بالوطنية عند العرب . كتبها على ضوء ديوان ابن حديس الصقلي الذي أخرج بدوره عن جزيرة الصغيرة الواقعة منتصف هذا البحر المتوسط . فهاجر الى افريقيتي يغني شعبها العرب المسلم (أغنية الطريد) ويتأشد ملوكها الاستفاقة . بينما أنا قد أخذت من افريقيتي على جناح الطائر الفولاذي محتازاني على جزيرة صقلية التي كانت تمر تحت مدخنة سيقارها من جبل النار محتازاني الى وسط بلاد الروم . فكان سيرنا متعاكسا وعصرنا متباعدا . وكان حالنا واحدا من استيلاء المعتدين على اوطاننا ومن التغرب للرير على النفس . وانما كان يتمثل حرا بين اخوانه المسلمين وملوك العرب . في حين اني كنت أسير الواقع ولم يكن في ساعتى تلك ملك عزى واحد في منعة من أيدي الطغيان الاروين انما أطمع هاته الدراسة وفجر الامل كما علم نورة ؛ وأنا أنفامل ان الغروب الذي شهد ابن حديس تخييمه على العالم قد أذن ليله بالبلج .

فأنا أهدبها الى طبقات الآملين من كهول مدركين وشبان عاملين .

قرين العابد بن السنوسي

٣٠ مارس ١٩٥٠

Wells

Wells, John (1810-1880)
Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

Wells, John (1810-1880)

الفاخر

عبد الجبار بن حمديس هو اول شاعر في العربية قد ترك لنا
ديوانا كاملا من الوطنية المشوبة الموتورة !

وشاعرنا هذا من ابناء القرن الخامس للعصر الصنهاجي في افريقيا
ولد في صقلية سنة ٤٤٧ ولكنه اضطر الى الهجرة عنها وهو كما
شب من ربيع العشرين فطاف بافريقيا والاندلس ثم رجع الى
صفاقس وتجنه والمهدية من الملك الصنهاجي بافريقية فعاش فيه
فوت نصف قرن كامل يبكي فيه وطنه ويحرض ملوكها على استرداده
ويهن من همتهم بالاشادة بذكر فضائله وفضائل رجاله وفضائل شاباتة
حتى مات وهو في عتبة التسعين من العمر .



مقدمة

ليس المهم هنا ان ننظر بين الوحدة الاممية التي عمل
لبلوغها الاسلام . والشعبوية التي خذلت الدولة العباسية فقسمت
بخلافتها الى امارات وثمرت من وحدتها المعقودة

كما انه ليس من غرضنا ان نعين موقف شاعرنا من الفكرتين
وانما نقصد الى تخليد حقيقة من ترسيم حدود الوطنية الشريفة
التي هي في شرفات حلقة من حلقات التجمع البشري والحضارة
المتناصرة المعقودة على الوطن . مما لم يسبق لنا ان راينا له مايمثله
دقة واطنابا وتمحيضا وتمحضا . في شعراء العربية . ولا غرو فان
وطنه جزيرة صقلية . هي اول « وذن » طاله الغزو الصليبي واقتطعه
كاملا من جسم العروبة والاسلام مع احتها الصغرى جزيرة مالطة
فهاجر اهلها مبثوثين في الارض

٤٤ انا من صاح- به يوم النوى- عن مغانيه غراب فاغترب
٥٥ طفت بالافاق حتى اكملت غرتي واحتسكت سن الادب

في جسيم التشرّد قد انصهرت للعربية في نفس شاعرنا السبائك
المابجدة الاولى لعاطفة « الوطنية » الناضجة:

- ١ بحكم زمان ساء كيف يحكم
- ٢ لقد اركبتي غارب الين غربة
- ٧ وقد مخرت في كل شرق ومغرب
- ٨ واوجف حوليها الكفاءة ضوامرا
- ١٠ فان تسر في ليل وحيش فانها
- ١١ وصيد يصيدون الفوارس بالقنا
- ١٣ دعتم بروق بالاكف مشيرة
- ١٤ عصا شملهم شت فشرق منجد
- ١٥ وما قد قد السير بالطول سيرهم
- ١٦ طوى البعد عنا فونطوين على الجوى
- ١٧ دعونا نساثر حاديا قاد نحوها
- ١٨ فما هذه الاهداج الا قلوبنا
- ٢١ ارجع بالشوق الحنين وانما
- ٢٢ فله عمر مر بي فكساتني
- تحرّم اوطان علينا فنحرم
- الى اليوم عن رسم الحماهي ترسم
- عليها بحور اليد بالعزم اسم
- فلا تنبك الا يساريه منسم
- سفائن بر بين بحر ين عوم
- اذا نكل الابطال في الروع اقدموا
- اليهم وعين عرفها يتسم
- الى طيبة منهم وغرب متهم
- ولكنما المنقد قلبي المتيهم
- نواعم تشقى بالنعيم وتنعم
- مسامعنا منه الحذاء المنعم
- جبائنا فيها سرائر تكتهم
- يهيج خيني عودها حين يروم
- به في جنان الخلد قد كنت انعم

٢٦٧

فهو لم يتسل عن وطنه الذي اخرج عنه وفارقه قي ميعة صباه
الحافل • ولكن كيف تنزع الرجال عن اوطانها ؟ •



الحرب لتحقيق السلام

وقبل ان نغمس في وطنيته الفدائية نرى ان نلمح الى حقيقة
قد تمحضت في اذه الناضج - ولا نعرف لها نظيرا في عصره .
فلقد بهرنا جلاوعها في اذه - على غرايتها وعمقها السامي الى
روح البشرية الرفيعة .

فان ادينا ابن حمديس قد صدع بالطرد عن جزيرته قذاق علقته
الغربة والتشرد عن غير ضغينة شخصية ولا غرض ذاتي . وانما هو
ضحية التباغض الذي زفره . والكنيسة الرومانية ترسل جميع الشعوب
المسيحية البعيدة من اقصى اسكندنافيا الى الجزائر البريطانية الغربية
تدافع بسحر العصبية الدينية لاكتساح المسلمين في حروب صليبية
جارقة تدفع بفلحهم في اليم . فمات من مات منهم في البحر
بدون حساب . ثم تعلق باقيهم بتلك الجزيرة . وطنه المنفرد وسط
البحر المتوسط بين الروم والعرب . فصمد اهل الجزيرة من مثل فرقة
« بني الثغر » المستمية في الدفاع عن وطنها صقلية وثغره الكبير
سيرقوسة . وشاعرنا وسط صحبه يغذي من تقوسهم التشبث بتراب
الوطن .

١ بني الثغر لستم في الوري بني امي اذالم اصل بالعرب منكم على اعجم
٢ ذرو النوم اني خائف ان تدوسكم دواه واقم في الاماني مع الحلم

٩. ولله منكم كل ماض كعضبة يسير الى الهيجاء متقد العزم
١٠. يحدث بالاقدام نفسا وانما يطير الى الحرب اشتياقا الى السلم

٢٧٠

فلا بد ان تقف هنا لحظة لهاته الفدائية التي ترتمي في الموت
(اشتياقا الى السلم) بردع روح الاعتداء والغصب . فيا له من نص
على الرشاد الفادي . لو تمكنوا من قمع تلك الهجمات الاولى .
لما تابعت الحروب الصليبية في حلقاتها المتسلسلة على القرون ومازال
المدركون يحسون بذبولها في مختلف التشكلات المتتالية الى اليوم .
من حروب بيت المقدس الى حملة سان لويز على قرطاجنة هنا حتى
تلونت بالاستعمار البغيض الذي رجع على شعوب اروبا حتى درجة
التناحر الجنسي والتقاتل بين بعضهم بعضا

بينما كان صاحبنا يدرك شؤم الحرب ويعلن تفاديهما باعتبارها
جنونا بشريا . وان يقر بانها شر لا بد منه . فهو برغم عقله وحلمه
وسلمه لا يرى مندوحة عن ان يتسلح لهؤلاء الجهوليين ليعيش بينهم
١٦ له عين ضرغام هصور . وقلبه بتصرف فعل الجهل منه على علم

٢٧٠

فشاعرنا عالم بمبلغ الجهالة التي ترتكبها البشرية بتناحرها في
تلك الحروب . ولكنه يسهه ما يسعهم وما تواطؤوا عليه من تيسار
جهالة الحروب . ثم هو فوقهم درجة قضية بادراكه لجهالة ما باتونه
جميعا .

ولو اردنا ان نتبع تاريخ هذا الادراك — للعقول المتفوقة — حقيقة
جهالة الحرب من صالح السلم للبشرية لوجدنا له شذرات مثورة من
قرن قبله في مثل استعراض المتنبى لفوز سيف الدولة الصامد في وجه
البرنطين ايام محاولتهم اكتساح الشام العربية في طلائع نفس
تلك الحروب ومع ذلك فانه لمح المحنة البشرية في مثل هاتيك
الاتصارات اذ قال واصفا السيات وحظوظ المغلوبين :

فلم يبق الا من حمأها من الطبي لما شقيها والى النواهد
تبكي عليهن البطارق في الدجى وهن لدينا ملقيات كواسد
واذا به لا يبطر ولا يلتذ بهذا الفوز بل يتهد تهدة المدرك :
بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
فهذا مبدا ادراك قامح لطفيان نخوة الانتصار وهو رشاد قد يعد
غريبا على شاعر الدولة في ساعة نخوتها ومجد ظفرها .

* * *

والقى من مثل هذا في الادب العربي اشباها ومبادي تتغلغل الى
اوائل عصر التدوين وتتغلغل الى عصر الرواية للادب الجاهلي من
مختلف النصوص الصريحة في الدلالة على سمو الشعور
العربي وادراكه للويلات الاجتماعية للحروب من مثل قول عمر بن
معديكرب .

كم من اخ لي صالح بواته بيدي لحدا
ما ان جزعت ولا هلع ت ولا يرد بكاي زندا

البسته اثوابه وخلقت حين خلقت جلدا
 ذهب الذين احبهم وقيت مثل السيف فردا
 واصرح منه قمع الطغيان الذي يتلبس به المنتصر في ساعة ظفره
 قول الفند الزماني في حرب البسوس لقرن قبل تاريخ الهجرة في
 قصيدته التي خلدها ابوعام في « ديوان الحماسة »
 وبعض الحلم • عند الجهل للذلة اذعان
 وفي الشر نجاة حية من لا ينجيك احسان
 فهو صريح في اعتبار هذا المنتصر ان الحرب شر برغم اضطراره
 اليها • وانما المهم هنا ان نلاحظ ان هذا الادراك ما هو الا كالاساس
 الدفين بالنسبة للقصر المرد • فاقين هي من المعنى الاجتماعي الذي
 لخصه شاعرنا ابن حمديس الذي « يطير الى الحرب اشتياقا الى السلم »
 ويا له من ملحظ وروح حضرية • وماذا عساها تكون سحنة العالم
 اليوم لو اتصر العرب على الدفعة الصليبية الاولى واي مرتبة تكون
 قد بلغت الحضارة من الطمانينة التي لم يعرفها العالم حتى هاته
 الساعة • اذ ساد في الدنيا من ساعتها المبدأ المشوم الذي يحسب ان
 « القوة هي الحق » ! وتغلب مذهب نيرون انبراطور رومة « تعسا
 لمن غلب » • بينما كان فلاسفة الاسلام وشعراء العروبة ينساقون ان
 القوة يجب ان تكون لفرض السلام وانهم يحاربون لفرض الحق
 وتثبيت الامن وتمهيد الحضارة المشروعة التي هي دين الحضارة الحققة

روح الوطنية

فهذا مبدا ادراك قامع لطغيان نخوة الانتصار وهو رشاد قد يعد
فاسمعه يقرع ابطاله من الفرقة الفدائية «ابناء الثغر» ثم سمه فيلسوفا
او واضعا لقواعد الوطنية في كتاب العروبة والمجتمع • فما هو الا
شاعرنا ذو العقل الجبار الخصب :

١٧ ولله ارض ان عدمتم هواءها فاهوا وكم في الارض منشورة النظم
١٨ وعزكم يفضي الى الذل والنوى من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
١٩ فان بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والحلم كالجار والحكم
٢٠ اعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم وكم خالة جداء لم تغن عن ام
٢١ اخلي الذي حديبي بحبي وصلته لديه كما نيط الرواء من الوسمي
٢٢ تقييد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك اورسم
٢٣ واياك - يوما - ان تجرب غربة فلن يستجيز العقل تجربة السم

٢٧٠

فاني عذر قد بلغه عبد الجبار هذا • واي فداء قاداه بطلا وشاعرا •
لقد افنك منه وطنه وشرده عنه • ولقد انتزع منه حبه بما لا سبيل
اليه • فهام على وجهه كالعصفور يغرد في كل ربح

٢٠ اعلى الزماع تلوم معتربا يقري الرحال غوارب الابل
٢١ اني اقيم صدورها لسرى تهدي كلاكله الى الكلل

٣٢ واروم عن وطني وقد دमित بعدي مدامع دمية الكلل

٢٤٧

فهو يبكي وطنه ويبكي حبيته • وإنما قال قصيدته تلك لستين
من خروجه طريدا عن الوطن • وتراء فيها يحن الى الوطن وءاله
حنين البكر • رغم كونه قد ظفر في مهجره بجنة دانية القطوف من
بلاط المعتمد ابن عباد الباذخ باندلس الترفة • حتى اذ وقع ابن عباد
من جنته تلك الى صحراء المغرب ولم يعد لشاعرنا مقر باندلس • بدل
القافية وانشد نفس النغمة على توقيع كبريائه •

١ تدرعت صبري جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان فحارب
١٤ ركبت النوى في رحل كل نجية تواصل اسبابي بقطع السباب
١٨ ولا سكن الا مناجاة فكرة كاني بها مستحضر كل غائب
٢٠ احتى خيال كنت احضى بزوره له في الكرى عن مضجعي صدعائب
٢١ فهل حال من شكلي عليه فلم يزر فضاضة جسمي وايضا ضذوائبي
٢٢ اذا عد من غاب - الشهور لغربة عدت لها الاحقاب فوق الحقائق
٣٠ ولو ان ارضي حرة لانيتهما بعزم يعد السير ضربة لازب
٣١ ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الاسر؟ في ايدي العلوج الغواص

٢٧



اغراؤه الملوك لتخليص وطنه

ولقد لاحظنا انه بلغ من اغرائه لملوك عصره في مدائحه لوطنه
حتى يعاودون اقتكاه واسترجاعه من « ايدي العلوج الغواصب » ان
اصبح لا يذكر جزيرته الا مطررة بهالة من نور الخشب والبهجة • ولا
يذكر اخوانه ابناء صقلية الا شباب مجد وكر ومصابرة وكفاح
مستमित • لا يني ولا يكل :

٤٤ اولئك قوم لا تخاف انحرافهم عن الموت ان خامت اسود الكتاب
٤٥ يموتون موت العزفي حومة الوغى اذامات اهل الجبن بين الكواعب
٥١ فغاروا افول النجم في حفر البلا وابقوا على الدنيا سواد الغياهب
٥٢ الا في ضمان الله دار : (نوطس) ودرت عليها معصرات الهواضب
٥٣ امثلها في خاطري كل ساعة وامري لها قطر الدموع السواكب
٥٥ ومن يك ابقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم عودة ايب

ويرثي شبابها ويشيد بطولتهم في كل مناسبة طيلة حياته •
١ رمى ورق البيض الذي زهره دم بهم ورق عن زهره الروض يسم
٢ جبابرة في الروع تعدو جيادهم بهم فوق ماشج الوشيج المقوم
١٨ ونحن بنو الشجر الذين تغورهم اذا عبست حرب بهم تبسم

٤٦٩

وفي هاته المراثية لـ اخوانه يصفهم بانهم كانوا لا يكتفون بل دفاع
العدو المهاجم المتفوق • بل انهم قد ينتهزون الفرص السوانح •

فيرجعون عليه الكرة بسطوة وظفر - على تفاهة عددهم • وقدير جعون
الى المراكز التي احتلها واطمان اليها • فيغزونه فيها غزوات موقفة
غائمة تززع من قواه الادبية • ولكن اهل الجزيرة • مع عدوهم :
قل في غنى وثرة ازاء كثرة • لان اخوانهم على القسارة الكبيرة
جنوبا لا يعينونهم ولا ينصرونهم • والوحدة الاسلامية قد اعترتها
الاغفاء الاولى العميقة من النومة الطويلة • بينما صيحة الكنيسة كانت
تعتقد من النصرانية وحلة صليبية مغمضة العينين جارقة • ولوامتفاق
العرب وسدوا دون الثرمان من الصليبيين مضيق طارق - الذي كانوا
يملكون ضفتيه - ملحقوا التيار بحركة واحدة هينة • وكفى للله المومنين
القتال • ولكنهم لم يفعلوا • ولم تستكشف الانسانية مثل هاته الخطط
الحاسمة • ولا تهيات اساطيل دهرها وعلم الجغرافية لمثل هذا •



مواطنوه عز الانسانية وبهجتها

وهو يبلغ في اغراءاته تلك وتمجيده لوطنه واعتزازه بذكراه ان
لا يصور من رجاله الا ابطالا ويطلع عليك من ادبه نساء صقلية كلهن
شابات نواعم غيد • حتى في قصيدته « انشودة الطريد »

١٣ ولله ارضي السبي لم تزل	كناس الضياء وغيل الاسود
١٤ فمن شادن بابلي الجفون	نفور الوصال انيس الصدود
١٥ يدير الهوى منه طرف كليل	يفل ذلاقة طرفي الحديد
١٦ ومن قسور شائك البرثنين	له لبدة سردت من حديد
٢٨ مكر الطراد وثر الجهاد	ومجرى الجياد وماوى الطريد
٢٩ بحيث تقابل شوسا بشوس	وغرا بغر وصيدا بصيد
٣٠ واجسام احياهم في النعيم	وارواح امواتهم في الخلود

٧٥

وفي « مرثية صقلية » يقول :

١ لضرطويل الهم نجزي العرامسا	وتطوي بنا اخفافهن الباسسا
٢ ونذعر في البيداء عينا شواردا	تذكر بالاحداق عينا اوانسا
٣ عذارى تركناها كما يترك القنى	مفاصله في معمعان وما نسا
١٣ ارى بلدي قد سامه الروم ذلة	وكان بقومي عزه متعاسا
٣١ • مشوا في بلاد اهلها تحت ارضها	وما مارسوا منها ايبا ممارسا

٣٢ ولو شقت تلك القبور لانهضت اليهم من الاجداث اسدا عوا بسا
 ٣٣ ولكن رايت الغيل اذ غاب ليثه تبخر في ارجائه الذئب مائسا
 ولن نطيل بانواع جمال بنات قومه وقتنة شبابه وشباباته ومباهج
 الجزيرة وترفها وحضراتها الفنية واوتارها الحافظة وراقصاتها القينات
 ومجالسها المنظمة الحفيلة لان لكل صنف من هذه المقائن الحفيلة باب
 يخصه في ادبه الحفيل وقد خصصنا كل صنف من ذلك ببحث توخينا
 فيه انتقاء طرائف ونوادير ما صورته عبقرية الشاعر



وربما طال بنا المطال لو سرنا في تقليب ديوانه على هذا النحو
 او ابحنا لانفسنا ان نستعرض ما قاله علماء البلاغة في مثل هذا الفصل
 المعنى () • وانما هذا كله بالنسبة لوطينا الموتور : تنهدة من نفس
 كبيرة مظلومة •

احن الى ارضي التي في ترابها مفاصل من اهلى بليسن واعظم
 كما حن في قيد الدجى بمضله الى وطن عود من الشوق يرزم ٢٦٩
 واذا اظلم علي ابن حمديس ذلك العصر فلم يلق كثيرين
 وطنيته السمحة في ظل الاسلام • نغسانا ان تفهمه نحن الان • برغم
 ان الدهر قد رمى الى محاولات جديدة من توحيد العالم في ظل
 روابط عليا من غير الوطنية الاروية التي ضاق الانماز بمصائبها على
 الحضارة ونواميس الرقي

جنة الدنيا ووطنه

ويشبه به شدة بوطنه وجهه لجزيرته وما بلغته من نفس شاعرنا
ان لا يذكرها الا كجنة الدنيا التي لن يكون لها مثيل • فهو دائم
التسبيح بحاسنها بما يحسن من لوعة عليها

٣٢ ذكرت عقلية والاسى يسبح من النفس تذكراها

٣٣ ومزلة للنصايي خلت وكان ينمو الطرف عمارها

٣٤ دأن كنت اخرجت من جنة فاني احدث اضرارها

وهي من قصيدة « الفردوس » التي اصبحت اشهر قصائده التي

تناقلها الحفاظ والنقاد • مع التهليل والتكبير • في جميع الاجيال

والامصار • من اقطار العربية المترامية من اقصى الشرق الى المغرب

الاقصى • وهي تمتاز بتصور رائع لصقلية الحبيبة بما لانظير له ويقصر

عنه التوصيف • وما يرجو المومنون توفره في عشرين وما ادراك ما عليون

وفي مقابل ذلك فانه يرى خروجه من الوطن حادثا لا يقل في

نفسه عن هبوط آدم ابى البشرية عن جنة الرضوان • وهو يخبر ويحبر

عن ذلك في كل قصيد من مثل قوله :

ان الخطوب طرقتني في جنة اخرجتني منها خروج المذنب

وانتهى كل ذلك بانعقاد مزيج غريب في نفسه وخلوده في ادبه

يتركب من الشيخوخة المرتعشة وعنفوان الشباب ومن الوطنية المفادية
والغرام العذري الذي يلهو عن الاجسام بالطيف كما سرسب منه وترتم
في بابه • وحسبك ان تتملى منه هنا بمثل قصيدته التي يقول فيها •
٤١ واذا ذكرني عهد الشباب الذي مضى لبردي فيه بالتعزم اسبيل
٤٣ ودار غدونا في حماها ولم نرح ونحن اليها بالعزائم قفيل
٤٤ بها كنت طفلا في ترعرع شرقي الاعب ايام الصبا وهي اطفال
حتى يختمها بقوله •

٦٦ يا حبيذا تلك الديار واهلها ويا حبيذا منهم رسوم واشغال
٦٧ ويا حبيذا منهم تنسيم نفحة وتوعية امحار النسا وواصل
٦٨ ويا حبيذا الاحياء منهم وحيدا مفاصل منهم في القبور وواصل
٦٩ ويا حبيذا ما بينهم طول نومة تنبني منها الى الجسر اهوال

١٢



الامل

انما ارتئي ان ارجع بقرائي الى مطلع هاته القصيدة لنقلب معهم
وتملي جميعا من معني قد صاغه له الدهر في تلك الصلصلة المادية
القاسية . مع ان نفس صاحبكم الجبار لا تعرف الياس من العروبة
الكرارة الدوعوب . فففسه من حلفاء الامل والعمل . ومن النفوس
التي تعيش علي الاحلام السامية والمساعي . لن يعرف التثبيط لنفسه
طريقا يخلد بها الي جحيم الياس . لذلك تراء - وهو شيخ -
يفتح ذكرياته الوطنية بحادثة الكاعب جمل وما فتحت علي نفسه
من تفاؤل :

- ١ اجمل علي بخل الغواني اذ مالوا تقاءت باسم لو يصح به الفال
- ٢ وحلت نفسي بالباطيل في الهوى ونفس تخليها الاباطيل معطل
- ٣ ولا بد من امنية تخدع الفتى وتطرق منها - بالتعلل - امل

٢٣٨

فالنفوس الكبيرة المشربة تستكشف ملكوتا من منحاظ الامل
البعيد وتسمو بالطموح الي العالي التي لا تستشرفها الابصار المادية
المحدودة بالظلال . وترى تلك البصائر ما لا يشيئه الا كهين من
الموقنين . وليس المهم بعد ذلك - لدى اولي العزم . الا ان
يكونوا قد سعوا وابلغوا النفس عذرها . في الساعة التي يكون فيها
اصحاب النفوس الخاملة قابعين في كسر ميوتهم راثر حين تحت الياس

فترى شاعرنا يراودك — ملا ديوانه — على تربية وعلى اصطناع
تهاته النفس الطامحة ذات الاحلام والامال ويصف لك طريق
اكتسابها — كما يفعل الصوفيون — لاطفاء القوات الباطنية • حتى
تستوعب الحس وتسمو بالنفس عن الام الجسد • بفضل تغذية الروح
وانماء خصائصها وتقوية عناصرها • وكذلك يفعل القادة فيسيوعون
منشطات الجند بالموسيقى الحربية وترويح موجات من الاخبار المغذية
وبتكوين امال غريبة ربما كانت من توافقه الاشياء • مثل اقراض
صغيرة من المعين يوزعونها بين من يلقون بانفسهم ويستسلمون في
اطاعة قادتهم • يسمونها اوسمة • وغير ذلك من الرموز والدوافع
الاصطناعية ولكن مجموع ذلك يكون رياضة عامة وينشأ بها اندفاع
جبار يستهين بالحياة ويغطي على حب السلامة الذي هو من نوااميس
العمران •

وهو يعرف ان النفوس القانعة والتي لا مطامح لها انما هي
نفوس ميتة لا قيمة لها في تكوين المستقبل وتقويم سيرة الحياة •
كالارض الغامرة وكالشبح البو والجح الخالي لن يقصده مشتاق •
وكالبلد الفقير لن يرحوه تاجر ولا خطيب • ما دامت نفوسا قد
فقدت اكسير الحياة ومبعث السعي والداب • من الطمع السامي •
والطموح الدائم •

٣. معالم اضمحت من دماها عواطلا
٤. وقتنا بميثاق العهود لربها
٥. قل في نفوس قد هجرن المطامع!
٦. كان عهود الربع كانت شرائعها

١٢١ امانت ربوع الدار فقدان اهلهما فاصبرت منها الاملات بلاقعا

١٩٣

فنفس قد خلت من المطامع والاحلام لهي نفس خراب لا خير
فيها في شجرة التكوين

— ٥ —

ومما نستحضره هنا عن مجد الطموح والمطامع مع مناظرتها
بالزهد • ما كتبه ابو عثمان الحداد من اشهر رجال المجد في القيروان
وكتاب مجالس المناظرة في القرن الثالث • قال « قدمت من طرابلس
فكنت في قافلة فيها سبعون حملا بزا من حرير البصرة • وجميع ما
في الرقعة من الجمال والجمال والاحمال ملك رجل واحد هو فيها
معنا راكب على حمار محزوم الوسط بمنطقة وكان يستظل بظل
محملي • يقال له ابو عوانة • وقال لي يوما : يا ابا عثمان • ما يقول
اصحابكم اصحاب الحديث ؟ انهم يقولون : القناعة غنى لان الانسان
اذا قنع بما في يده استغنى عما في يد غيره • ولكن اصحابنا السدادين
يقولون : القناعة فقر • لان من قنع لم يطلب ومن لم يطلب لم
يكسب ومن لم يكسب فهو فقير ! » اه •

وفي كتاب الحياة « ان عدم الكسب عجز • والطموح سر الرقي
وقال غيره •

شباب قانسع لا خير فيه وبورك في الشباب الطامعين



مذهب الحزم

ولا تظننه مغموراً في استقراب النتائج واستسهال الظفر • فانه
اعرف الناس بان المساعي الجادة قد لا يتفق لها الظفر • ولكن الخيبة
- بكلاحة طلعتها - لن تهم هاته النفوس الناصبة العاملة ولن تخيفها
٩ فان لم تفز فوز المحيين بالمتى فقد نلت من برج الصباة ما نالوا

٢٣٨

ولعمرك • انه مذهب الحزم • يرى ان السعي واستفراغ الجهد
سعادة ورضا لان راحة قلبه في تحريك بدنه واجهاد الطينة

وطفنا في البلاد طواف قوم يريح نفوسهم تعب الجسم

وهي بيت يحسن ان يترنم بها ابناؤنا اليوم من فرق الكشافة
للشباب • واولي العزم من هذا البشر السامي لن يخلد لطبيعة المادة
التي تسكن لكل مستقر او تهوي مع كل منخفض كالماء والحجارة •
فنفسهم معتلجة لها طبيعة النار الشابة تتجه بطبعها الى التعلق
والى العلو والى التسامي • ولن يقضي عليها الا الفراغ المطلق
واختناق المنافس من مقوماتها الذاتية • لانها من نواميس التحول
العلوي بينما غيرها • من النفوس الطينية • اللزبة الملتصقة • والتي
تكسل عن الحركة وتخاف التحول والتطور وتثيب حركة الانشاء
والافتراع والتكوين • • • لم يهبهم الله ميزات الخلق الكامل ولا
طبعهم الحياة بميسم التطور • فهم مجبولون عن الاستسلام للسكون

والحمود حتى انهم ليسمون « راحة » بينما شاعرنا يصارحك ان
راحته باتعب جسمه في سواء السبيل • والكد نفسه غم • وتصريف
الحياة الذي يجد به التملّي والسعادة العليا •

٢٢ وان الميت في طلب المعالي كمن نال المنى منها وءابسا
٣٣ وكنا في مواطننا كراما تعاف الضيم انفسنا وئابا
٣٤ صبرنا للخطوب على صروف اذا رمي الوليد بهن شابسا
٣٥ ولم تسلم لنا الا نفوس واعراض نكرمها احتسابا
٣٦ ولم تخل الكواكب من سقوط ولكن لا يبلغها الترابا
وبهذه الروح نلقاه عاملا حتى آخر لحظة • • • • • لن يدركه
الياس من العروبة • وهذا ديوانه يدوي بالعزمة العروب التي لن
تقل روحها • وان صلت الجسوم •



على اني قد قدر لي ان شهدت لثلاث هاته العزيمة حداثتين في
حقبة واحدة من الحرب الاروية الثانية • ذلك ان انكليترا قد
خسرت موقعة برقة ١٩٤٢ وارتدت حتى « العالمين » على ابواب
الاسكندرية • واخاعت سلطانها المتمد على جميع البحر المتوسط •
فوقف وزيرها تشرشل يقول في مذياعها بامواج الكهرباء الصوتية
يعلن للعالم : « لقد خسرتنا سيادتنا في البحر المتوسط • ولكننا سنعود
ونفتحه من جديد » • وكان ذلك سنة ١٩٤٢ • فلم تكمد تتعقب
السنة حتى كانت قوات الحلفاء تنزل المغرب الاقصى وتلتهم الجزائر

وتغرس السيادة من جديد في البحر المتوسط . ثم كان الفصل الثاني
اذ خسر موسوليني الموقعة بدوره في طرابلس ثم انسحبت قوات
المحور يوم ١٠ مايو واسلمت من تونس آخر نقطة لها فوقف
موسوليني في مذبحه برومة ليشهد العالم هو ايضا عن قوة ارادته
« لقد اسلمنا افريقيا اليوم وانسحبنا منكفيين . ولكننا نأخذ على
انفسنا عهدا باننا راجعون » . انما موسوليني لم يرجع الى تونس
ولن يرجع اليها لان انكلترا قد تسنى لها ان شهدت موته يايدي
اخوانه المنشقين عليه . وذلك لسنة واحدة من كلمته وعهده المقطوع
بينما تشرشيل قد فاز بما امل وهو على راس قومه . ومع ذلك فنحن
نرى حلفاء موسوليني في رومة يعملون جهدا لا يعرف الشيطان لكي
يعودوا لمرآكزهم من افريقية ! .

اما شاعر الاسلام وبطل سرية البحر المتوسط ابن حمديس فقد
رايته ينادي عن صقلية من صفاقس (١) باسم العرب والحضارة « وانا
اليها بالعزائم فقال » ثم اقبل دينا في عهدة عزمات يعرب ان يسدوه
لتحقيق التكافل والسلام في قناة صقلية التي كانت في عهدها العربي
درة حضارة وسوءدد . وكعبة اداب وفنون وصناعة . ثم هي قد
لأنحطت منذ برحها العرب . وما زالت تهتف بالانسانية ان ترد اليها

(١) صفاقس بسن. اولاً وسن. آخرها . كذلك كانت تكتب .
وهو خلاف كتابتها اليوم بالصاد اول الحروف .

ما حرمتها منه بتوافع الحروب الصليبية وضغائن التعصب في قرون
اروبا المظلمة . فما هي الا عمران افريقي عند ما جاءها الانسان
الاول من افريقيا يئما كانت « الارض الكبيرة - كالاباريا »
احراشا نائمة لم تتدع جمتها يد الانسان . فالصقلي الذي نراه
اليوم متحطا . قد كان في ايام اتصاله بامة ومعدنه افريقيا يتسج
لل بشرية الحضارة وينتج العباقرة من مثل ابن حمديس وهو يستعش
ويخضر ويثمر بمجرد اسناده من جديد لصدرا امه وشعوره بدفتها
الحنون . واذالك فقط يرتكز امن البحر المتوسط وتقوم ابرة ميزانه .



لذة الكد

لأنما عيد الجدار يمثل لنا « الإنسان الكامل الحيوية » الذي تغلب
شطرة الانساني على شطره الجثماني المادي من حيويته السامية
يسعى لتطوير الحال ولعلاج ما هو فيه بالتقريب • تقريبا فيه استجابة
للحال وفيه تطيب لماله الاعلى ! •

وهو لا يستسلم للكسل • بل ان نفسه الشابة فيرب التوابع
لتملان ذلك التقريب عظمة بما فيها من جهد لا يتي وبما نراه على
من اضاء للنفس في علاج كل ظرف وكل حال •

اخي ذلك الجهد لذته ؟ لمجرد ان ترى نفسه سعيها الخالص
واجتهادها الخالص ... فتطيب ! فالاجتهاد والعمل بالهامية هي
لذته ورضاه او هما يجلبته وسلواه •

فهو من النفوس التي تؤثر الاقدام والحزم • ولن تخلد الى
استثمار المتوفر - على عواهنه - فلا استسلام ولا ركود •

هو من النفوس التي لا يخيفها التعب • من طينة سامية تمت
اللام النازلة عليها بئلام اخرى تقدم هي على مكابقتها وصراعها
وتعالج الصعود - دائما - الى الاعالي • فتسلق الصخور الحادة
المكاسر مهما كانت متهكة وقاسية • كما قاله ابو القاسم الشابي
شاعرنا التونسي الحديث :

ومن لم يعاني صعود الجبال يعيش ابد الدهر بين الحفر
وكانما ترى ابن حمديس يستمد من انهاك قواه عزاء نفسه
والرضا • بل هو يقرر لنا هذا في كل مناسبة حتى يقول في توصيف
جده ورحلته في ظلم الليل :

١٤ قطعنا تحت غيبه عراء بعارية العظام من اللحوم

١٥ ودامية مناسمها رسمنا لها قطع المهامة بالرسم

١٦ وطفنا في البلاد طواف قوم يريح نفوسهم تعب الجسوم ١٨٣

فاعظم بها من نفوس قد سخرت الاجساد لتعلي على نصبها

الكمال البشري المقدس • طامحا للعلالي عازما على الكمال مطلقا

للجلال • عزوفا عن الركود والضة والتفسخ والانحلال •

❖ () ❖

بل لقد حلت المحاولة والكد مكان الفوز حتى صارت تطيب

بمجرد انهاكها في مكابدة المساعي ! •

وهذا - لعمرك - سمو في النفس وتطوح في الهمة عما تواضع

عليه الغمر عموما من تحمل المشاق قصد البلوغ الى فصل الراحة

كالنهر يسعى جهل حيوانيته ليشبع • حتى اذا امتلات امعاؤه التوى

حتى ليدس انفه تحت ذنبه ملتفا على نفسه خلودا واستغناء وانما

هم هؤلاء اخماد لوثة الم جسدي يصور منهم الحزم • بينما هذا

الضئف العزيز لم يكن همه هم هذا الحيوان البدائي

بل همه تصريف القنوت الشرية في مطالب الكمال

والسمو * وهي صفة النفس التواقفة لا تخمد بالجسد الا بمفارقة الروح

ولعل من طرائف كماله في تلك العزيمة المفادية ما استعرضه لنا
من موقف فراقه لزوجته في ساقس * وهو كما وصلوا من صقلية *
وهو لم يثق من ضنى حرب العصابات والكمين في المثلث الصقلي
الصغير * وعمته الحذوبة عليه وعلى ابنتها زوجته وقد وصلا اليها
بالسلامة — تفسح اليه من البيت والجنان باعظم ما تملك من ترحيب
وتحجب وترغيب يتجسس على فرحة السلامة من الهول الخطير *
فتملا ابنتها الحامل هناء وطمأنينة ودل * واذا بعبد الجبار قد وصل
اليه عناصر الذين تشبثوا من فرقته « بني الثغر » * وحدثوه بمواقع
اندلس الكبرى وتراحي الصليبيين على شواطئها المسالمة *

فاذا به قد عزم * واذا به يدخل اليها مودعا لمتابعة اعداء وطنه
ليمنعهم اعتداء جديدا اخذوا في اقترافه على ارض الاسلام * وهي
تشبث به وهي تمانعه * وهي تشبه وتكسر من همته بهواها وجبها
النسائي ! فاذا بكبريائه يغطي كل شيء ويغطي على كل شيء :

٤ خذ العزم من برد السلو فانما هوى الغيد عندي للهوان نسيب
٨ وان ضاق بالحر المجال ببلدة فكم بلدة فيها المجال رحيب
٩ اذا انت لبيت العزيمة واضعا لها الرجل في غرز فانت لبيب

١٠ ومنكرة مني زماعا عزمته عدوك يا هذي الي حبيب !
١١ جرى دمعها والكحل فيه — كانه جمان بماء اللزورد مشوب
١٢ وقالت : غرايب درجن بينه ستسدرج الاعوام وهو غريب !

١٣ فيما كان إلا ما قضى بالهابة قبل كان عنها الغيب ليس يغيب؟
 ١٤ القديس: التاويين والعزم والسرى وعود الفلي: عود عليه صليب ٢٩
 قاعج لعوده — وهو حصانه الفاره — الذي يركبه هذا المريد
 الصليب — في عزيمته — كيف يكون خامسا للمعنويات الاربع التي
 اسمها: من ١. عبادة الفلوات و ٢. اسراء الليل و ٣. العزيمة و ٤. التاويين
 في مواصلة رحلة النهار. كانتا الله الحيوانية قد ارتقت الى
 المعنويات بمجرد أن ركبها تلك العزيمة الصلبة!
 وتجلده يراود الشيطان غيره — طيلة عمره — كان لم يتحمل شيئا:
 ٢٤ اخذ برايم في زماع واصل طرفيه بسفين وركاب
 ٢٥ واغترب وارج المنى كم من قتي معدم نال المنى بعد اغتراب
 ٢٦ أن اتراح النوى يعقبها بجزيل الحظ افراح الاياب ٣٧



الاغتراب

ان الروح التي هاجر بها ابن حمديس عن جزيرة صقلية • انما هي ابياء الضيم واستكار الجبروت واستكار التحكم والاعتداء الذي جاءت به تلك الموجة الصليبية • من فرض الانسان استعماره على اخيه الانسان في عقر داره • ليفسد عليه نظامه الاسلامي الراقى وقوانينه المشرعة السامية وءادابه ولغته التي سبكتها التصانيف وخلدتها النواميس • بينما كان المهاجم - في الواقع - فاقدا لكل تلك العناصر الحضرية • انما قوته في كثرته وفي غرته وفي اندفاعه الجديد بما ينفثه فيه الرهبان من تعصب اعمى يرمي به من شمالي المانيا وشواطئ البلطيق الجامد الى حرارة هاته المياه المتماوجة • ليغضب ويكتسح • عن غير خصومة ولا مصلحة ولا تراحم بين هؤلاء الثرمان وحضارة العرب الاسلامية السامية • اذن فقد هاجر ابن حمديس مع زمر الشباب الابي الى سفاقس والى اندلس ثم استقر في سفاقس نصف قرن كامل تحت الرعاية والجراية ومخصصات البلاط واحترام الدولة الى درجة ان يكون شفيح البلد اثر وحشة لها مع الملك الصنهاجي فيشفعه ويرد على سفاقس ميزاتا وكرامتها وعوائد رعاية نشاطها المتفوق • كل ذلك ببركة شفاعتنا الشاعرن الذي اصبح معدودا منها واليها •

ومع ذلك فان نعمة الوطنية قد كانت قوية في قلبه • وبذرة

الحسرة قد كانت حافظة لعناصر حياتها في طي فؤاده . حتى لا
يعد نفسه الا غريبا . وهو بين يديه واخوانه واوليائه واصهاره وايمائه
ومستبنياته وابناء المهاجرين الذين كان ياييهم بفضله واحسانه وشفقته
وتكافله وحسرتة على جتة الضائعة صقلية .

فما نكاد نراه ينسى . وما يكاد يستقي . ولن تغرب عن ذهن
مطالع ديوانه انه متغرب مشرد عن وطنه الجميل :

انا من صاح به يوم النوى عن مغانيه غراب فانغرب
ومهما رايتاه منغمسا في اللهو وممارسة غي الحياة والاعراق في الاقبال على
الحمور والنساء . . فان اقل اصطدام يكشف القشرة الغاشية عن نفس موحشة
لا تحس الا بالاغتراب والنزوح والبعده . فبعد اربعين سنة من هجرته يقول
مرثية لبنية من المهاجرات ضمها لبنياته ورباها . تحت سقف
ولائه ورافقه .

٢٩ اراني غريبا قد فعلت غريبة كلانا مشوق للمواطن والاهل ٢٤٥
وبنفس هذا الشعور ينظر الى قبر عمته في سفاقس :

٢٨ غريبة قبر عن قبور بارضا مجاورة في خطه الطعن والضرب ٢٨
وبهاته النفس يتهد في كتبه لآخوانه واهله الذين يرأسهم

٢٦ انا يا ابن اختي ! لا ازال اخالسي حتى اوسد في الضريح وسادي

٢٧ اني امروء — مما ظرمت مهمهم بفراق اهلي واتراح بلادتي

٢٨ اردى الغريب بعلته تعاده بالكرب وهي غريبة الرواد ١١٨

وسنخصص «تشرده» ببحث مهم ضمن دراستها ناه نستوعب فيه نواحي
غريبة من هذا المعلم الملي بالهمال من مجاهل النفس البشرية الخنوان

حيث كان اهل رومة يخلقون من اسم مدينتهم دولة وجنسا •
ويحتضنون لها لغة وادابا وحضارة ويقتبسون لها دينا • فيفرضون
هاته جميعا على القارة الاروية دون ان يكسبوها جنسيتهم • لانهم
يرون انفسهم عنصرا قائما بذاته • فهاته ربما كانت عاملا خفيا
قد اعان على تجسد حقيقة الوطنية التي تفرد بها شاعرنا النابغ •



الوطن

بين توحيد المجتمع واثارة الحروب

مع ملاحظتنا ان العاطفة الوطنية على معنى التعصب لموطن
يُسمى له الانسان فيحذب عليه ويخصه بالعصبة ويقا تل من اجله الذين
عرف اذا احس منهم بالعنوان عليه . ويركن من اجله لمن لم يصادق
من هاته العصبة الوطنية فهي عاطفة غريبة عن الاسلام . وما زال
مهاجرو تونس ينسون انفسهم في بغداد والقاهرة والمدينة . ونعد
مصطفى خزنه دار من اعظم وزراء تونس وهو يوناني .
وءاغة بطل بحرهما وهو عثمانى . ويعبد العثمانيون
خير البدين باشا من رجالهم وصالح الشريف من ابطالهم
كما ان الخلد بن الحسين قد اصبح من هياة علماء مصر الذين تفخر
بجهدهم الموفق وثلاثتهم من تونس . لان الوطنية بمعنى التعصب للارض
لم تقره الحضارة الاسلامية العاملة للوحدة البشرية والرقى الانسانى .
اذ (لا فضل لاعرابى على اعجمى الا بالتقوى) بنص ما سنه النبي
ﷺ (صلعم) واندفع به الاسلام من جزيرة العرب يحتضن القبط
والحبش والفرس والروم والبربر بما لا موقف عنده
ولكن شاعرنا ابن حمديس قد ولد على مقربة من منبع الوطنية .

٣ وهو «الحمى» مقيلاً أيام الحمى فانما وللت ولما ترجع
 ٩ وانما يسكي بكساي شجن ووجع يعرف فيه وجعي
 ١٠ لو انطق المربع وهو اخرس - توجع انطقه توجعي ١٨٥



من ذلك قصيدته « حنين الوطن » التي يعرض فيها علينا موقفه مع الأخوان الذين يرحبون به في كل مكان ويوطئون له من الحياة اكتفا . بما يحسبون أنهم يسمحون عن نفسه كل اثر من الوحشية . لانهم متوطنون على الوحدة الاسلامية العامة التي لا ترى التعلق بطبقة الارض ولا بالجنس . لان القاعدة عندهم ان الانسان جنس واحد اختاره الله واعطاه الامانة الكبرى من العقل ليسود به الكائنات . والمسلمون يرون « ان المسلمين تتكافؤ دماءهم ويسعى بذمتهم ادناهم » وهم وحدة اجتماعية لا تنقسم ووحدة نظامية لا يختلف تشريعها ولا نظامها ولا اخلاقها . وان اختلفت اقطارها والوانها . وهم يعملون لوحدة لغوية ويحسون بالتكافل البشري العام والتراحم وشرع المحبة بين افراد الانسان . والمسلم يتنقل في بلاد الاسلام كما يتنقل المالك في بيوته وفي اراضيه العامرة المنتجة .

— و —

وكاننا بعبد الجبار بن حمد يس قد كان بوطنيته هاته ظاهرة غريبة في ذلك المحيط الاممي الذي عقده الاسلام وحدة بشرية متألقة بمشاهدة حتى اذا وجدوا انكماشة الغريب ووحشته الملازمة للنازح الطريد راجعوه في حزنه مع ايناسهم ووجونه مع تقر بهم . « ما هي التربة الا ارض الله . وما نحن الا عبيده هنا وهناك . ونحن اخوان يحملناك ما يحملنا ويبعث ما يعننا » فيضيق ذرعه بالحقيقة الهائلة ويقول :

- ١ حتى متى يجرى الهوى بالاربع لوما ؟ فما امره عن مسمعي
- ٢ ويحك ! لو كنت وفيما لم تقل « ويحك » لاتبك لرسم بقلع .

تسارح الأغراض العمومية الأخرى • قلم تهن عليه ان يتقرب بها
لامير اندلسي او سلطان افريقي ولو كان من المجاهدين المدافعين ضد
اعداء وطنه من الصليبيين الذين اغتصبوا ارضه •



وليس من المناب ان نقل هنا قصيدة كاملة او قصيدتين على سبيل
الانموذج لان شرطنا في هاته الدراسات انما هو الخزل والاختصار
والانتقاء والابجاز • وانما تقدم للقراء قائمة انموذجية من بعض تلك
القصائد المطولة المفردة بالحنين الى الوطن مؤلفة من رقم القصيدة في
المرتبنا لديوانه مع اسمها حسبما اعددناه للطبعة التي سنخرجها

١٨٨ جلال وانين	٢ - الشباب والوطن
٢٦٢ زفرات	١٣ - جلد
٢٧٧ ذكريات	٣٥ - الحنين
٢٦٩ قومي وبلادي	٢٧ - منية الطريد
٢٧٩ الطريد	٩٨ - نسيم صقلية
٢٨٢ دفين اغتراب	١١٠ - الفردوس

وهو في مختلف هاته القصائد قد احاط باوجه متنوعة وغريبة من
حقائق الوطنية واوجه تقليدية • واستعرض من احاسيس ذالك الشعور
كل شريف وبهيج

قصائد الوطنية

بلغت الوطنية بصاحبنا ابن حمديس أن رأيناه يشح بقصائده
الوطنية عن أن تمزج بغيرها من الأغراض أو تقدم لغير اخوانه من
المهاجرين . إنما تتبجس عنه أطيف وتهيدات ماهو على رجحها بقادر
فمقاطيعه الوطنية منشورة في ديوانه نشرأقيا فهو يصف للملك علي
الضهاجي حالة ابنائه الذين تركهم في سفاقر الحماية دولته يرجون
اباهم كالصافير المجردة من الريش صفر الملاقط تفتح افواهها كلما
احسّت برفرقة طير بعيد تحسبه اباهما فتلقاه باصواتها حتى اذا خاب
فألها انكملت من الخوف . . . ويصف للملك حسن بعده يوم فراقه
لزوجه الشابة وقد التف عنقهما الشابين واجهشت بالبكاء تنبش
بالزوج أن لا يتغرب ويجازف بفرقتها . . . ولكنه في جميع تلك
المناسبات لن يقرع الاوتار الغليظة من عاطفته الوطنية فقصائده الوطنية
منزهة عن أن تدمج في قصائد معاشه واعايب الحياة . بينما قصائده
لصحه وملوك عصره تجدها متوجه بالغزل ومضخة بالتمسور والحب
والبذخ . او هي عامرة بالخليل وامجاد المواكب والفروسية . . . من كل
شيء . . . غير وطنيته التي يعرفها شيئاً خاصاً به

او كأنما هو كلما استغلظ وتر منها في ادبه افرد وزواه . كبرياء
به وشحا بعاطفته ان تدخل سوق الحياة . باخذه وعطائه . او ان

- ٢٠ ورايك يا بحراني جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
 ٢١ اذا انا طالعت منها صباحا تعرضت من دونه لي مساء
 ٢٢ فلو انني كنت اعطي المتى اذا منع البحر منها اللقاء
 ٢٣ ركب الهلال لها زورقا الى ان اعانق منها ذكاء
 ارايت هذا التوق والشوق والذوق الشعري الذي يسخر له من هلال
 السماء مطية حتى تاخذه الى جيبته (صقلية) ليعانقها عنق الواله المفتون
 والمشتاق المحروم اذا واتي متمناه *
 ٧ تعوذت ارضي ان تعود لاهلها فباعت ظنوني ثم اصبحت بائسا
 ٨ وكيف وقد ميمت هو ان وصيرت مساجدها لا يدي النصارى كئاسا
 ٩ لئن كان اعني كل طب علاجها فكم جرب في السيف اعني المداوسا
 ١١ صقلية كذا الزمان بلا لها وكانت على اهل السلم محاربا
 ١٢ فكم اعني بالخوف اضحت سواها وكانت بطيب الامن منها نواعسا
 اري بليدي قد سامه الروم ذلته وكان بقومي عزة متعاسا

٢٥٧



انما لمحناله هنا من الناحية الوطنية البحتة لنلاحظ قوة هاته العاطفة في نفسه . والا فان اخوانه والكثير من غيرهم - الذين هاجروا ربما لم يوقفوا في اغترابهم توفيقه الذي استقر به في اندلس وفي افريقيا وتونس ولكنهم انطبعوا على مهجرهم وتوطنت نفوسهم على ما قسم لهم واستشعروا القرار والاستيطان والانس بما عوضوا .
 ناهيك بزميله ابي العرب الذي حاق به ما حاق باخيه شاعرنا .
 ودافع ما دافع . ثم انكفاء الى مهجره يقول :

الام اتباعي للاماني الكواذب وهذا طريق المجد بادي المذاهب
 ويا وطني ان بنت عني فاني سوء وطن اكوار العتاق النجائب
 اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي
 بينما شاعرنا الوطني لا يترك حب الوطن بدعوى وحدة العالم
 وفلسفة الاشتراك في الانسانية والاخوة العالمية . بل تراه جاثما في
 شيخوخته على طرف من القارة الافريقية الكبرى يتسم ريح جزيرته
 ويرثيها في قصيدته التي يرثي بها الاعزين (الشباب والوطن) :

- ١١ ويا ريح اما مررت الحياة ورويت منها الربوع الظباء
- ١٢ فسوقي الي جهام السحاب لاملأهن من الدمع ماء
- ١٣ ولا تعطشي طلالا بالحمى تداني على مزنه او تناء
- ١٦ ولا تعجبي فمغاني الجسمي يطيب بطيب ثاراها الهواء
- ١٧ ولي يبتها مهجة صبة تزودت في الجسم منها ذماء
- ١٨ ديار تمشت اليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء
- ١٩ صحبت بها في الغياض الاسود وزرت بها في الكناس الظباء

انما لمخنا له هنا من الناحية الوطنية البحتة لنلاحظ قوة هاته العاطفة
في نفسه . والا فان اخوانه والكثير من غيرهم - الذين هاجروا
ربما لم يوفقوا في اغترابهم توفيقه الذي استقر به في انسلسن وفي
افريقيا وتونس ولكنهم انطبعوا على مهجرهم وتوطنت نفوسهم على
ما قسم لهم واستشعروا القرار والاستيطان والانس بما عوضوا .
ناهيك بزميله ابي العرب الذي حاق به ما حاق باخيه شاعرنا .
ودافع ما دافع . ثم انكفاء الى مهجره يقول :

الام اتباعي للاماني الكواذب وهذا طريق المجد بادى المذاهب
ويا وطني ان بنت غني فانتى سعوطن اكوار العتاق النجائب
اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربى
بينما شاعرنا الوطني لا يترك حب الوطن بدعوى وحدة العالم
وفلسفة الاشتراك في الانسانية والاخوة العالمية . بل قرأ جاثما في
شيخوخته على طرف من القارة الافريقية الكبرى يتسم ريح جزيرته
ويرثها في قصيدته التي يرثي بها الاعزين (الشباب والوطن) :

- ١١ ويا ريح اما مررت الحياة ورويت منها الربوع الظماء
- ١٢ فسوقي الي جهام السحاب لاملأهن من الدمع ماء
- ١٣ ولا تعطي طللا بالحمى تداني على منزله او تناء
- ١٦ ولا تعجبي فمغاني الحمى يطيب بطيب نارها الهواء
- ١٧ ولي بيتها مهجة صبة تزودت في الجسم منها ذماء
- ١٨ ديار تمشت اليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء
- ١٩ صحبت بها في الفياض الاسود وزرت بها في الكناس الظباء

- ٢٠ وراة يا بحر لي جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
 ٢١ اذا انا طالعت منها صباحا تعرضت من دونه لي مساء
 ٢٢ فلو انني كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء
 ٢٣ ركب الهلال لها زورقا الى ان اعانق منها ذكاء
 ارايت هذا التوق والشوق والذوق الشعري الذي يسخر له من هلال
 السماء مطية حتى تاخذه الى حبيته (مقلية) ليعانقها غناق الواله المفتون
 والمشتاق المحروم اذا وني متمناه .
 ٧ تعوذت ارضي ان تعود لاهلها فساعت ظنوني ثم اصبحت بأثنا
 ٨ وكيف وقد سميت هوئا وصيرت مسلجدها ايدي النصارى كئاشا
 ٩ لئن كان اعين كل طب علاجها فكم جرب في السيف اعين المداوسا
 ١٠ مقلية كاد الزمان بلائها وكانت على اهل النعمام محارسا
 ١٢ فكم اعين بالخوف اخضت سواها وكانت بطيب الامن منها نواعسا
 اري بلدي قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزة متقاعسا



قصائد الوطنية

بلغت الوطنية بصاحبنا ابن حمديس أن وانيه يشح بقصائده
الوطنية عن أن تمزج بغيرها من الاغراض أو تقدم لغير اخوانه من
المهاجرين . انما تتبجس عنه اطياف وتهدات ماهو على رجوعها بقادر
فمقاطيعه الوطنية منشورة في ديوانه نشرًا قنيا فهو يصف للملك علي
الصنهاجي حالة ابائه الذين تركهم في سفاقس لحماية دولته يرجون
اباهم كالعصافير المجردة من الريش صقر الملاقط تفتح افواهها كلما
احسبت برفرفة طير بعيد تحسبه اباهًا فتلقاه باصواتها حتى اذا خاب
فالها انكملت من الخوف . . . ويصف للملك حسن بعده يوم فراقه
لزوجه الشابة وقد التف عنقهما الشابين واجهشت بالبكاء تشبث
بالزوج ان لا يتغرب ويجازف بفرقتها . . . ولكنه في جميع تلك
المناسبات لن يقرع الاوتار الغليظة من عاطفته الوطنية فقصائده الوطنية
منزهة عن أن تدمج في قصائد معاشه واعايب الحياة . بينما قصائده
لصحبه وملوك عصره تجدها متوجهة بالغزل ومضمخة بالخمور والحب
والبذخ . او هي عامرة بالخليل وامجاد المواكب والفروسية . . . من كل
شيء . . . غير وطنيته التي يعرفها شيئًا خاصًا به
او كانما هو كلما استغلظ وتر منها في ادبه افرد وزواه . كبرياء
ابه وشحا بعاطفته ان تدخل سوق الحياة . باخذه وعطائه . او ان

اتساع الاغراض العمومية الاخرى • فلم تكن عليه ان يتقرب بها
لامير اندلسي او سلطان افريقي ولو كان من المجاهدين المدافعين ضد
اعداء وطنه من الصليبيين الذين اغتصبوا ارضه •



وليس من المناسب ان نقل هنا قصيدة كاملة او قصيدتين على سبيل
الأمثلة لان شرطنا في هاته الدراسات انما هو التحلل والاختصار
والاقتناء والايجاز • وانما نقدم للقراء قائمة انموزجية من بعض تلك
القصائد المطولة المفردة بالخير الى الوطن مؤلفة من رقم القصيدة في
اقرئينا لدنوانه مع اسمها حسبما اعدناه للطبعة التي سنخرجها

١٨٨ جلال وانين

٢٦٢ زفرات

٢٧٧ ذكريات

٢٦٩ قومي وبلادي

٢٧٩ الطريد

٢٨٢ دفين اغتراب

٢ - الشباب والوطن

٦٣ - مجلد

٢٥ - الحنين

٢٧ - منية الطريد

٩٨ - نسيم صقلية

١١٠ - الفردوس

وهو في مختلف هاته القصائد قد احاط باوجه متنوعة وغريبة من
حقائق الوطنية واوجه تقليد • واستعرض من احاسين ذبلك الشعور
كل شريف وبهيج

من ذلك قصيدته « بحنين الوطن » التي يعرض فيها علينا موقفه مع الاخوان الذين يرجون به في كل مكان ويوطعون له من الحياة اكتافا • بما يحسبون انهم يمسحون عن نفسه كل اثر من الوحشية • لانهم متوطنون على الوحدة الاسلامية العامة التي لا ترى التعلق بطينة الارض ولا بالجنس • لان القاعدة عندهم ان الانسان جنس واحد اختاره الله واعطاه الامانة الكبرى من العقل ليسود به الكائنات • والمسلمون يرون « ان المسلمين تتكافؤ دماؤههم ويسعى بدمتهم ادناهم » وهم وحدة اجتماعية لا تنقسم ووحدة نظامية لا يختلف تشريعها ولا نظامها ولا اخلاقها • وان اختلفت اقطارها والوانها • وهم يعملون لوحدة لغوية ويحسون بالتكافل البشري العام والتراحم وشرع المحبة بين افراد الانسان • والمسلم يتنقل في بلاد الاسلام كما يتنقل المالك في بيوته وفي اراضيه العامرة المنتجة •

— و —

وكاننا بجهد الجبار بن حمديس قد كان بوطنيته هاته ظاهرة غريبة في ذلك المحيط الاممي الذي عقده الاسلام وحدة بشرية متألفة متناخية حتى اذا وجدوا انكماشه الغريب ووحشته الملازمة للنزاع الطريد راجعوه في حزنه مع ايناسهم ووجوفه مع تقربهم • « ما هي التربة الا ارض الله • وما نحن الا عبيده هنا وهناك • ونحن اخوان يحملنا ما يحملنا وايضاك ما يسعنا » فيضيق ذرعه بالحقيقة الهائلة ويقول •

- ١ حتى متى يجزى القوي بالاربع لوما ؟ فما امره غن مسمي
- ٢ ويحك ! لو كنت وفيك لم تقبل ويحك • لا تبك لرسم بلقع •

٣ وهو «الحمى» سقياً لا يام الحمى فانما وللت ولما ترجع
 ٩ وانما يبكي بكاي شجن ووجع يعرف فيه وجعي
 ١٠ لو انطق المربع وهو اخرس - توجع انطقه توجعي ١٨٥



الوطن

بين توحيد المجتمع واثارة الحروب

مع ملاحظتنا ان العاطفة الوطنية على معنى التعصب لموطن
يُسمى له الانسان فيحذب عليه ويخصه بالعصية ويقاقل من اجله الذين
عرف اذا احس منهم بالعدوان عليه . ويركن من اجله لمن لم يصادق
من هاته العصية الوطنية فهي عاطفة غريبة عن الاسلام . ومازال
مهاجرو تونس ينسبون انفسهم في بغداد والقاهرة والمدينة . ونعد
مصطفى خزنة دار من اعظم وزراء تونس وهو يوناني .
وءاغة بطل بحرهما وهو عثماني . ويعبد العثمانيون
خير الدين باشا من رجالهم وصالح الشريف من ابطالهم
كما ان الخلد بن الحسين قد اصبح من هياة علماء مصر الذين تفخر
بجهدهم الموفق وثلاثتهم من تونس . لان الوطنية بمعنى التعصب للارض
لم تقره الحضارة الاسلامية العاملة للوحدة البشرية والرقى الانساني .
اذ (لا فضل لاعرابي على اعجمي الا بالتقوى) بنص ما سنه النبي
محمد (صلعم) واندفع به الاسلام من جزيرة العرب يحتضن القبط
والحبش والفرس والروم والبربر بما لا موقف عنده
ولكن شاعرنا ابن حمديس قد ولد على مقربة من مشبع الوطنية .

حيث كان اهل رومة يخلقون من اسم مدينتهم دولة وجنسا •
ويحتضنون لها لغة وءادابا وحضارة ويقتبسون لها دينا • فيفرضون
هاته جميعا على القارة الاروية دون ان يكسبوها جنسيتهم • لانهم
يرون انفسهم عنصرا قائما بذاته • فهاته ربما كانت عاملا خفيا
قد اعان على تجسد حقيقة الوطنية التي تفرد بها شاعرنا النابغ •



الوطنية كناية الاخلاص والمجد

فلتختم دراستنا هاته عن « الوطنية في ادب ابن حمديس » بقلب
صحيفة هاته الوطنية • التي رايناها - الى حد الان - حقيقة يجلدها
وجوهرا يتشبث به ويقرره على الحياة •

واذا به يفيض منها معلما ينير به غيره من المعاني ويعرفه به
فالوطن الذي عرفه للناس وفرضه على لسان العرب • نراه عميقا
في نفسه واضح الدلالة على التعلق والاخلاص • وانما نلاحظ ان
معتماه له لذلك كان في مخاطباته لنفسه وفي مخاطباته لنويه من
المهاجرين الذين كان لهم من هاته الوطنية المرزوة « شجن كشجنه »
لو على حد قول جحلامه عند ما سقط من درجة السلم فلزم الفراش
ولم يجد عذرا « لا تدخلني علي عائدا الا اذا كان قد ذاق سقطة
الدرجة • مثلي • » وهكذا تراه لا يجد تشبيها يعبر به لصبره الحكيم
في مدينة سفاقس • الا بالحنين الى الوطن في النفس المرزوة

لقد حنت الى مشواك نفسي كمرزاة الى وطن تتوق ٢١٥
فما اعمق التعبير وما ابلغ ما في نفسه ! وما ابلغه في ان لا يعبر
بمثل هذا الا لابن عمه واخوانه المهاجرين والمهاجرات الاحياء
فانظروا كيف يتصور صموده وتشبهه بارض الوطن - لو اتيح له العودة
اليه - ... وانما ساق ذلك في معرض مغالته حيثه الصقلية
الواجفة • يصور لها مبلغ اخلاصه وكنمائه لسر هواهما •

لقد يقرر السر غنمي كانه غريب ديار قال في وطن حسبي ١٨

٢٨ اني دُفعت الي هوالك وغربة

هتفت بها الزمات والاسفار

٢٩ وغرست عمري في الزماع ففرت

اقمى جناه نجائب وقفار

٣٠ وجعات داري في نوى ، فؤانى

وحش للفلا وبجالي الاكوار ١٤٤

٢٧ خرج ابن حليس من حقلية لاسناً بوطيته الافريقية سنة

٤٧١ هـ ١٠٧٩ في ظلمة اغزو الساي لصقلية

٢٩ مصدر: عزم على الرحيل . الحنى : ما من شأنه ان يحنى

من لمؤنة اضجة النضرة . النجائب مفردة مجببة : القارضة من الرواحل

٣٠ للنوى : المغلقة والابتعاد الاكوار . مفردة الكور :

(بضم الكاف) رجل البير باده

بين التشرد والاعتراب عن الوطن

أما وقد قصر المجتمع الاسلامي في القرن الخامس (٤٧٠ هـ)
 حتى أن يرد غارات النرمان الذين جاء بهم الروم . فقد راينا أبناء
 جزيرة صقلية يتشرون متشتين لاجئين عند اخوانهم المسلمين العرب
 بين الاندلس والمغرب وافريقية ومصر والمشرق

٢٨ بقية احبابي الذين حوتهم مضاجع لم يضجع بها لنام
 ٣٠ تقرقم للبين في كل وجهة تثير جمان في انقطاع نظام

٣ - (البين) القرية والتباعد - (الجحان) للولوء (النظام) خيط من
 حرير بلون شعر الغانية او يقتل من نفس شعرات من راسها تطفي للباشطة
 تسلك فيه الجواهر المطلوبة لزنة بعينها حتى تشد به الصبية له شعرها . وقد
 نشأ مع تلك الحضارة الباذخة ذوق رفيع لشذات غريبة قد يهور منها هيكل سماء
 في ليلة نيرة او برج بعينه من الثريا او غيره من رموز السعود . وقد يشد
 به الشعر علي هيئة مقيقة حرب . مما يتلائم مع حفلة رجوع الاسطول منتصرا
 مما تفتقه الحيلة ويساتي به ذوقهن السليم في الملابس والمناسبات او يصبح
 شدة اتباعية فهي حلية بسيطة قد تصبح ائمن حلية عند المترفين الذين ينفقون
 علي المواشط الضعفاء : والقيانات الشهيرات . بحيث كان لها فنانات اختصاصيات
 تظفر ما بلغناه بجيلانمن وجود جنانات متخصصات في نقش ايدي الفسواني
 بصياغ الحناء نقشا فنيا يعشن به في سعة ورغد بين عائلات المدينة وبين عائلات
 القرية . وراينا عائلات يختصمن بحنانة بل راينا غانية تختصن بمباشطة تسهر
 علي تدبير زينتها . وان امتلاء ديوان ابن حمديس بالحديث علي شذات الشعر
 ليدلنا علي ما بلغت الحضارة الصنهاجية من الرفعة والبذخ والذوق . هي لا تقل
 مجادة عن وطنيتهم وجدهم . وهي صنو قرين لحضارتهم الصناعية وهمتهم .

٣١ فحرب يكف الدهر عنه عزيمتي وحزب أترد الروم عنه مرامي
٣٢ ساعطي بشيرا قال لي قد تجمعوا ثواب صلاتي طائعا وصيامي
٣٣ وارقب يومافيه بالوصل تلقي سجام دموع بينسا بسجام

* * *

٣٤ متي اتكم ينشرلكم من ضريحه دفين اغتراب لا دفين رغام! ٢٨٢



٣١ - صدر البيت (حرب) ويعني به معامع الحروب الصليبية حيث انه قد
حاجر من صقلية بامر الخلافة الفاطمية مخليا لها للصليبيين وهو طامع في ان
يحاربهم . وقد سافر لحربهم في ندلس ولكن الهدنة التي امضاها الملك العتمد
قد فتت في عضده وردت عزيمته . بينما (حربه) وعشيرته لم يتمكن من جمع
شملة بها لان جزيرته قد بقيت في براثن الصليبيين الاثني من شمالي ازوبا
بتحريض وقيادة الاروام : وهو عجز البيت .

٣٤ - (الضريح) القبر المشيد (الرغام) الشراب . وهي من قصيدته
٢٨٢ التي كتب بها الي ابن عمته الطيب علي بن ابي الدار في صفاقس ومنها
ايات اخر تدخل في فصل (الاغتراب)

التشرد عن صقلية

لقد اضطر الى التشرد عن وطنه • فحيى حياة الاغتراب لا يعرف
لقدمه مقرا • منذ دخل الثالثة والعشرين •

لقد كان مستقرا • فهبط عليه حكم الاغتراب • نزل عليه نزولا
لا قبل له بدفعه • ولقد جاهد ملء جهده • وجاهد ملء جهد شباب
صقلية وملء ما بشها الاسلام والعروبة من نخوة ومجد • ولكن !

ماذا عساها تصنع تلك الحفنة من سكان الجزيرة في مدافعة الامم
الصفراء التي سحرها « الروم » بحضارة روما وبالدين المسيحي
السامي ••• ثم ارسلوهم ضد الاسلام وقادوهم لحرب العرب
والمسلمين • فكان حظ جزيرة صقلية ان وقعت في ضيقهم •
فاكلوها واهلها ينظرون ! بل ان كثر هؤلاء النرمانيين قد اكمل
جميع ما توفر لهاته القلة الاسلامية من جهد

فجزيرة صقلية ارض محدودة بالبحر • ولم يعرف المسلمون
- حتى ساعتها - انهم قد خرجوا عن دنيا دانت لهم • بينما دنيا
« صقلية » قد تزايدت من تحت ارجل هؤلاء الكرام فكانت اول
واقعة في نوعها •

فترى في شاعرنا ابن حنيس المثال الاكمل للشعور بتدياك
الغبن والقهر في حين ان شمه النفسي لن يعرف الاقهار •

الجهاد

لقد كانت جزيرة صقلية حينها تابعة لمصر منذ انتقل المعز لدين الله بدولته الفاطمية من المهديّة الى مصر • وابنتى « القاهرة المعزية » ولم تقرر مصر قبول المعركة الصليبية في تخمها المنقطع « صقلية » وانما كانت اندلس هي التي تتولى مهمة الكفاح ضد الصليبيين • فكتبني على الصقليين المؤمنين ان يصمدوا بانفسهم ولكنهم في الوقت نفسه قد اضطروا الى النزوح • بعد تجربة التشبث وحرب العصابات • لو كانت المسألة مجرد غزو •

اذن فقد تشبثوا بين المشرق والمغرب بينما راينا شاعرنا قد نزع بزوجه وولده الى افريقية حيث اقرهم عند حماة عمته في مدينة صفاقس • وركب هو الى اندلس لكي يلاقي هؤلاء الصليبيين الذين اكتسحوا وطنه •

واذ رحى الحرب قد توقفت في اندلس • واذا الملك الحميد نعم في بجوحة هدنة ما كان هؤلاء المجاهدين ليتوقعوها •

لقد كتبت عليه حياة « المحتشد » ! ولم يات صاحبنا ليعيشها • وما كان لي هنا • والنار تتلجج في ضميره ! واي هناك يجده ؟ نيل تريف قد اعتنق السيف لينزود المعتدين ويعطيهم درما • فأذا به يجد نفسه قد قبل حياة الجندي المحترف الذي يعيش في الثكنة وفي المحتشد

وفي المعسكر وفي الديار التي سخرتها لهم الحكومة لتأويهم ! وما
جاؤوا لياووا خالدين لتلك الحياة • وانما جاؤوا في طلب كفاح
قد ضاقت عليه ارض صقلية الصغيرة •

اذن فقد رجع لنفسه يستريح ما فيها من خلاصة بشرية كريمة
يمكنه ان يعيش عليها • فكانت هي الادب : الشعر • ورفع الشعر
في جلسة تاريخية الى وراثة منزلة ابن عمار • عند الملك المعتمد بن عباد •
يوم سقوط الوزير الشاعر ابن عمار • وكان حلما لذيذا ختمت
ليلته ذات السنوات الست بصباح اخذ فيه الملك الى المنفى وذبح فيه
ابن شاعرنا في جحر ايه وانهار ملك الطوائف ودولة
الشعر • • • ولما كانت النكبات تؤلف عائلة متضاهرة الافراد فقد
توالى النكبات على شاعرنا • فغرقت المركب التي فر عليها من
اندلس • ومات امامه جاريته التي كانت شمسها ترد عليه برد الغربة
ويجلي عليه تبلجها كل ظلام • وهو في تمازيق ثيابه يضم الجثة
ويمجب بالكحل لم تغسله عن اهدايا الامواج التي اغرقتها
وطوحت بها حتى الشاطئ • • • ثم دفنها على ضفة هذا البحر

١ - ابوبكر ابن عمار شاعر طموح بلغ اماره مرسية وعنها اخذه المعتمد
ابن عباد فكان الوصول اليه به من قرطبة يوم الجمعة ٦ رجب ٤٧٧ هـ
١٠٨٤ م • وهو اليوم الذي كان معينا لاقتبال شاعرنا ابن حمديس من نفس
الملك المعتمد • فتأجل الاقتبال اياما •

المتوسط بين انصاف الحضر من هذه البشرية المتنازعة • ليستأنف
حياة التغرب التي لم يقصد من ورائه ثراء ولا علما ولا املا ولا عزاء

- ٥ وما هي الا غربة مستمرة ارى الشيخ فيها بعد سن غلام
- ٧ وما شيب الانسان الا تقرب يمر عليه اليوم منه كعام
- ٩ واني لسهم في نقادي • وليتي تهدف بي دار الاحبة رامي !
- ١٧ فلا تحسبوني قد تسليت عنكم بطيب سماع او بكاس مدام
- ١٨ ولا ضحكك سني وهل ضحكك وما وضعت على فض الدموع ختامي
- ١٩ متى كنت مختارا على الوصل فرقة تطيل الى ورد اللقاء هيامي
- ٢٠ ولا تحسبوني خائفا قطع مهمه يدوم واخفاف المطي دوامي
- ٢٤ الم اركب النحس اشتياقا اليكم قوارب مخضر الغوارب طامي
- ٢٥ الم اكفي الغرقى مشيرا براحتي فلم انج الا من لقاء حمامي

وعاش دائما غربا متقلبا في ديار الغربة من سبتة الى اغمت
ومن تجنة الى سفاقس ومن سفاقس الى المهدية لا يردده شيء ولا
يمسكه جاذب • منذ فقد الوطن • وكان القدر قد شاء ان يطلقه من
كل عقال اذ افكك وطنه وماتت زوجته مشتاقة اليه تمنى فيها الذي
لا يققهون بانهم سينعمون باحتضان ابيهم بعدها • وماتت جاريته
ومات ابنه البكر وتقطعت اوصاله حتى الملك الذي اصطفاه قد نكب ثم وجدته
سجيناً فواساه وعلله حتى مات في سجنه وشاعرنا يهون على نفس
الملك بينما هو لا يجد من يهون عليه !

نشئت الشمل

والله في وصف ذيك التشت بلاغة وطرافة يدلانك على مبلغ ما
يحز في نفسه فتتفنن في تصويره بالصورة الموهبة الموهمة . والصور
البلاغية التي يتعسف فيها ما يناسبها من جزالة التركيب وغرابة المعنى
وقوة التجنيس . فيقول في توصيف وقتهم ونشئت الامة المقهورة :
١٤ عصا شملهم شت فشرق منجد الى طيبة منهم وغرب منهم
١٥ وما قد قد السير - بالطول سيرهم ولكنما المنقلد قلبي العتيم

١٤ - (عصا) ضرب بالعصا مثل « ساط » ضرب بالسوط . (الشت)
التشت والتفرق والتقسم . (منجد) من النجدة وهي المسارعة للمناصرة .
وفيها توزيع بالذهب نحو « تجد » في جزيرة العرب . وليس هنا قصدها .
وكانما يرمز به الى حزب التكافل مع المشرقين : فاطميين او عباسيين (منهم)
من التهمة . وهم حزب المعارضة الذين لا يرون الاعتماد على الوحدة الشرقية
بل يرون تكوين الوحدة الغربية ضمن سلطان افريقية وقد كان له انصاره
لعهدا (راجع ما بسطناه في الثورة علي المشاركة ضمن ترجمة) محرز بن
خلف) في كتابنا الكبير (بلاغة العرب في افريقية) . علي ان هناك تورية
فالمنهم : الذي يذهب نحو تهامة تنظر الي المثل « ابن التهم من المنجد » .

١٥ - (قد) الاولي برقع القاف مبني للنائب . من قدده الجاد وقد لا ديم
اذا شقه وقطعه ومنه قديد اللحم مشقة مقسمة لتخلله الشمس او الملح و (قد)
الثانية : الطول والمقدار . تقول « قسته عني قد » . (السير) الشريط من جلد
او غيره . ذو طول مديد مع عرض قليل تافه بالنسبة له (المنقلد) المتفطر
والمنشق . ومنه في الثمران عند وصف حادثة يوسف وزليخا امرأة فرعون لما
ادعت عليه وقد تصادقا علي ان تمزق ثوبه كان في المصارعة بينهما « ان كان
قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ٢٧ وان كان قميصه قد من

فالتشيت قد ضربهم بعصاته وساطهم سوطه فشرق احابؤه المنجبون
وغرب هو المتهوم في حبهم . فكان سير الواحد منهما تتضاعف به
مسافة التباعد . ويشبه هذا التضاعف بقدر من سير جلد تقف فتشقه
قدين يميل احدهما لجهة والاخر ضده فكلما نزلت بالشق قدا واحدا
كانت المسافة بين الطرفين قدين من ذلك السير . فما اغرب التصوير
وما اصدق التشبيه . وما ابلغ التركيب . ولا يزيد يعقد التجنيس الا
اغرابا . ولا يزيد التفهم الا اشعارا . وانما هي الحرقرة الطاغية يرى
بها ما لا تراه انفسنا التي لم تلفحها تلك الشحوس الموهماجة من
الوقع الجلسل .

وهي من القصيدة ٢٦٧ في ديوانه الذي سنعتضد بالخراجه مصححا
مقابلا كما عملناه فيه ٣ سنوات من ايام اعترا بنا بدورنا . وقد جعلنا
عنوانها (ذكريات) ولم نشبع من تكرارها كلما وجدنا لذلك قرصة

دبر فكذبت ربح من اهادقين « السورة ١٢ يوسف . ونرى هذا المعنى لابن
راشيق شاعر المعز الصنهاجي :

يا بعد ما بين ممسانا ومصحننا والعيس قاطعة ميلين في ميل
باعت هلي رسالها قرامي الفجاج بنا عنا وعننا بكم ابدي المراسيل
سيرا ييزاد به ضعف مسافتها كانما هو (سير) قد بالطول
ولا غراية ان قد عرف هذا المقطوع شاعرنا ابن حمديس في قراضة الذهب
قركه وزادة طرفا وابداعا . وان حمديس من زعماء عصر التوليد وله مصطلات
في حق الشاعر علي المحائقي القديمة التي يمكن ان يراجعها في يولدها و
يحصنها . تراه في بحث ادبه من غير حصنها تراه في بحث ادبه من غير هذا

عزة المكابذة

انما كان صاحبنا محتضنا في جميع تغرباته « الذكريات »
 فيعيش بها • وينكر بها مصائبه وتهدمه وشيخوخته وارتعاشه •

وكان يتقلب على ظهور القوارب وفوق غوارب المطايا فتستوي
 لديه البحار والصحاري لانه غريب هنا او هناك مستهدف للقدر
 حيثما كان • ولقد اخذه القدر بما لا طاقة له به • وهو في جزيرته
 وفي مجده الوطني وفي بيته الرفيع العماد • فلماذا يقيم اليوم بيت
 وبر او صخر •• ان الحياة قدر •• ولا مفر من القدر • انما هناك
 شيء يبقى للانسان • فينعم بجنات « ذكرياته » • ليستأنف ترحله •

- ١ فواءدي نحيب والجواد نجيب فابعد مطلوب علي قريب
- ٣ اذا كان عزمي مثلما في حمائي فاني امروء بالصارمين ضروب
- ٦ فشب الدراري وهي علوية لها طلوع علي افاقها وغروب
- ٥ وبادر ولا تهمل سرى العيس انما لها خب في النجج ليس يخيب
- ٧ ولو لم يكن في العزم الاقلب ترى النفس فيها سعيها فتطيب

فهو قد لبس دور التغرب الذي كتبه عليه القدر المحتوم • فارتضاه
 وكرمه واخذ منه التجارب وغنى عليه بشعره كما لو كان منحة
 وكرامة ! ويكفيه من تلك التجارب القاسية ان ترى نفسه اثرها
 وبلاءها حتى ترضى وتطيب الى انها قد سعت السعي الانساني
 الكامل واعتضدت بالأمورية الملقاة على كاهلها اعتضاد المختار

رشيد ! فطبيب لمجد التصرف البشري •

فهو اذن يتقلب في طوال الشطر الغربي من هذا الشمال الافريقي
كما نسميه اليوم • مستغنيا باحلامه عن كل تلك الاحوال الاخذة
في الاحليلاك • فالحياة المادية متوفرة لاجس الحيوان واخس
الطحالب • وانما الحياة الروحية في الامل الموصول بالجهد الواصل
بالتأمل • والحال — عنه — درجة كانت مطلوبة ليصعد عليها برجله
الانسانية الطموحة الى درجة ارفع في النفس المشربة لعليين وما
ادراك ما عليون •

١. امطتك همتك العزيمة فاركب لا تلسقين عصاك دون المطيب

٢. واطو العجاج بكل يعملة لها عوم السفين على سراب السبب

٣. شرق لتجلو عن ضيائك ظلمة فالشمس يمرض نورها في المغرب

انما توغمنا البيت الاخير على التلميح الى مذهب التشف
للمعراطين الذين اكتسحوا جناته باندلس حتى مات ملكها ابن عباد
في اغمات من هناك المغرب الذي انكسرت على شواطئه سفينة احلامه
تبراه اخيرا مشرقا نحو صفاقس والمهدية في ظل الدولة الصنهاجية
المشرقة • فلا غرابة ان يتطير من المغرب !

وانك لترى من شعره — في هذا الدور — ان قد اصبحت الرحلة
ملجأ والترحل ملاذا لنفسه المستطارة عن اوكارها ! وكر الصبي من
صقلية وكر الشباب والبلات المرفه بالحب والنعيم في اندلس • فقد
خرّب عشه في الاولى ومزق شمله في الاخرى • فاستطار الى الرحلة
والنفقز لا يقر له قرار • وكانما اصبغ شاعرنا من الطيور ذات رحلة

الشتاء والصيف • فالرحلة عنده • غاية • يحض عليها بكل حجة
وبالشعر الخلاب • لأن ركوب مطايا العزم واستطاء افلاك الحرم هي
طريقته التي زادت لها الأحداث • فأصبحت خلته التي يعتقها
لاستبقاء نفسه والشموخ بكبريائه الانساني الرقيق • بل أصبحت
ذاتيه ومن نفسه • بعد ان أصبحت الغربية له وطناً • لأن روحه الأكبر
مع الأم جسمه •

٢٠ وما ضاقت علي الأرض الا دحوت مكانها خلقا رحابا
٢١ ساعسف القضاة بمرقلات تجاوزت بي سباسها انتهابا
٢٥ واسري تحت نجم من سناني اذا نجسم عن الابصار غابا
٢٦ وان الميت في طلب المعالي كمن نال الننى منها ومايا ١٢

والآن ! ارايت هاته النهاية ؟ لقد استغنى بالخاصة عن الغاية !
فالغاية - اذن - انما هي تعلقة للنفس العمالة المتحولة • والغاية
أصبحت وسيلة لسياسة النفس على احتمال مصاعب الجهد العاقل
وللترغيب عن الكسل ! بل قل ان اعلان الغاية وسيلة احتجاج
ودعاية تتغنى بها النفوس المبحولة على السعي جبلة النحل على
صبك الشهد لاسترضاء غرائزها المركبة في طباعها جبلة ! فما اعجب
هاته النهاية من « رقي » البشرية ان تجد نفسها مساقة عند ما كانت
تظن نفسها تسوق العوالم في حضارتها ! والعيباذ برب الناس من
هاته المساقة الفكرية • بل خير لنا ان نتبع الشاعر ابن حمديس
فيما يستيقية لنا ديوانه •

مجد الاغتراب

حري بنا ان نقف على هذا المعنى الغالي الذي يعرفنا ان في
المشاق لنة ورضى وتطبيقه لهاته النفوس القدة « ولو لم يكن في
العزم والحزم من نتيجة الا ذلك القلب والصراع الذي غالينا به
الظروف والاحوال ... لكفى » فلك المصابرة والمغالبة والصراع
هي مجد الانسانية وطمأنينة النفوس المتوثبة .

ولعلنا من هاته الليت يمكننا ان نستكشف غريزة اتساقية « مجد
المغالبة » .

فهاه الغريزة هي التي تعري الاسبان بمصارعة الثيران المجرد
« مجد المصارعة » وهي التي تجعل شبان العصر السالف يمارسون
المصارعة وهي نفسها التي نراها في مظهر احط عند ما تضع على
الشبان اوقاتهم في « اطراح » من لعب الورق او لعب الترد « شيش
بش » او غيرهما مما ينهمك الشباب في مغالباته التافهة بينما نفس
هاه الغريزة يصرفها الرشاد والتوفيق — في الشعوب المهمة —
نحو امجاد سامية تفوز بها الامة في ميادين الرياضة البدنية والرياضة
العقلية بمقادير تحيي المران ولا تستهلك اوقات الامة ولا تقسوت
مطالب الحياة

اما في صاحبنا ابن حمديس فهي غريزة قد كانت طاغية عاملة

اتوجهت به نحو التقلب في البلاد ومغالبة صواب ماجدة وقد ادر كها
عقله الماجد - فلم تعمض عنه - وقد وضحا لنا في شعره فسطها فيه
تبسيطا مر بك اطراف منه . ثم هو قد اختزلها لنا اختزالا رائعا
فلو لم يكن في العزم الا تقلب ترى النفس فيها سعيها فتطيب
ومفهوم انه قد كان في سياق التقلب في الغربية . ولعله لو كان
بصد تقرير الحقيقة المجردة لا بدل « التقلب » في صدر البيت بكلمة
(تغالب ليكون اعم من « التقلب » في الهجرة والتقلب في البلاد
١٥ ارمي فاصاب الهم بالهم اذ رمى هي الكف ترمي احتما فتصيب
١٦ واجرى سفين البر في لبح زئبق من الال هزت جانبيه جنوب
فالنفس العبقريه لن توءودها . . لن توءودها هاته المادة .
ولتبطلون الحياة بالجرم . ولتغرقن الحاجة في الطلب . حتى يتقلب
الاقتار همة والهمة عطاء وفيض كرم !

٧ احلت عزمي على همي فقطعه كان عزمي من صمصامي الذرب
٨ ما قر بي السير في سهل ولا جبل الا كما قر جاري الماء في صب
٩ ولم اضق في السرى ضرا بمعضلة قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي
١٠ او ترتقي حر انفاسي فابعثها بردا وان كان مستقى من اللهب
١١ او احر بالحر ان تلقاه ذا جلد وان تبطن داء قاتل السوصب

فابن حمديس الذي رايته يحرم الهجرة في باب روح الوطنية .
ويرى التقيد بالوطن ويحرم الهجرة عن الوطنيين (ص ١٢) . تلقاه
اكبر داعية للثقل في البلاد . اذا كان هناك ضيم . عند ما فقد
الوطن :

٤ اذا كان الشواء عليك داء فيروءك في نوى يمطي الركابا
٦ وان اخا الحزامة من كراه كحسو - مروع الطير - النغابا
٨ فصرف في العلى الافعال جزما ورفعا ان نحوت بها الصوابا
١١ اولا ترغب بنفسك عن فلاة تخال سراب قيعتها شرابا
١٢ افكم ملك ينال بخوض هلك فلا يبههم عليك الخوف بابا
٢٠ وما ضاقت علي الارض الا دحوت مكانها خلقا رحابا

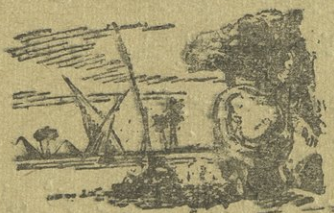
فيا له من ملك ينال بخوض التهلكة . ويا له من شد لعزيمة
ذوي العزم . ويا له من دافع للاقدام ويا له من مجد وجراة

طلاب فلاة جواب افاق كانه هو يهيء الناس ليجوبوا معه الارض
متقلعين من كل التصاق وكل ارتباط بالمقر . لانه فقد وطنه
وبارح مغرسه . فلم يعد يشته ان ينغرس - ابداً - واصبحت الاوطان
لديه سواء . فهو الغريب في غرزالناقة وفي ركاب الخيل وعلى مقعد
الفلك . من يبداء الى ثغر ومن قلعة الى مدينة ومن شاطئ الى
جبل . . . كلها لديه سواء . في طلب راحة الضمير الذي لا يقرب
بغير وطنه المفقود



على انه قد عانى من البحار ومن القيافي والفقار الهوالا • لم
نعرف شاعرا وصف منها ما وصف ولا رحالة ابلغ عنها ما ابلغ • قد
خصصنا بها فصولا نوفر بها على جامعي طرائف الادب ذخرا •
ونهيء منها معرضا نضدا لمن لا نفس تشتهي ان تقابل غرائبها
باداب السليك بن سلكه او غير من ادباء اللغات

٢ وتطرحني بالغرم من غير فترة سفائن بر في سفائن ابهر ٢٤٩



الغرام والرحلة

وكثيراً ما يمزج لنا صور هذا التغلب مع إفانين غرامه • فيغلب
التغلب والترحال على الاستقرار في بحبوحة الحب :

١٦ يا هذه ان العلى لتهزني حساما على طرف الحوادث قاطعا

١٧ اذريني اكن للعزم والليل والسرى وللحرب واليلدا والنجم سابعاً ١٩٣

فغرائز الحب — بللوا نهارها — لن تكبح من جماعه في طلاب التغرب
بعد ان فارق الوطن وانتقل عن حبه القطري

١١ ومن يطلب المجد ينزل الى قري النهر عن نهله عذراء رود

١٢ ويرمي عن البين عزماً يعزم وليلاً بليل وييدا بيك ٧٥

وهذا باب واسع قد اغلقنا منه هنا لنفتح على مصراعيه عند
دراسة « الحب واللهو » • وانما نكمل هنا ان صاحبك لذو عزة
وكرامة نفسية تتعالى في النهاية عن كل ما يلتبس ويتلبس بالجد
ومجرد الذوق في المحسوسات

٢٩ انا نبع لآخرع • قيد عمري وارى العود منه نبع وخرع

٣٠ لست اثني عن السرى في طريق خيم الليل فوقه فهو خيرع

٣١ فكاني خلقت جواب ارض اصل العزم حشوها وهي تقطع
٣٢ وكاني في مقول من زماني مثل وافد على كل مسمع ١٨٨



في الفلوات والصحاري

ان هي حمة أسمرها ولها قت فالي والتمسود
 وفلاة أبداً ضائقة مشفق من قطعها المود العنود
 حمل الماء ولا تشربه فهو للمروى بها عين حسود
 جبتها في متن ربح تذبدي للسرى بين سدوع وقنود
 في ظلام طنبت أكنافه فرق أرجاء وهاد ونجود
 ولقد قلت لحادي عيسنا رهي بالنجل على النجل تجود
 أنجماء مخرق الخرق به كابدته منك أم مضغ الكبود

ان هجرته في السوطن قد اخرجته من جزيrote المحدودة
 الارض وسط البحر الابيض الى هاته الدنيا الافريقية • وتغلغل في

جبالها يكابد صحاريها • فوقعت عينه على مناظر لم تالفها في الصبا
ومن هنا امكنه ان يرى فيها ما لم يصفه غيره من اهل جزيرة العرب
اصحاب الربع الخالي !

٢٧ حيث اذكت ذكاء فيها او ارا يلفج الوجه في اللثام فيسفع
٢٨ واذا ما لامست جدول ماء خلته حية من الحر تلسع ١٨٨

٢٧ — ذكاء : الشمس • الاوار : وهج المهب • يسفع • في
ناب يسمر سواه بحمرة ، وهو آفة من توبع شمس •

الماء في الصحراء

ومن يبلغ قصائد التي تظننا في وصف أهوال صحاري المغرب :

- ٢٠ ومشجونه بالخوف لا آمن شديدا
كأنك فيها حيث سرت - مريب
- ٢١ كأنك في ذنب عظيم بقطعها
تأنت إلى الرحمان منه تنوب
- ٢٢ ترى راصح الرمضاء فيه كأنه
مواقع تار واقعته ذنوب
- ٢٤ كان ارتفاع الصوت فيه تضرع
إذا لذع الأحشاء منها لهيب
- ٢٥ وتحسب أن القفر حم فمائه
من العرق الجاري عليه صيب
- ٢٦ وما كان إلا خير دخر بعده
قطاة - لارماق النفوس - وذيب
- ٢٧ وراع سوام الشمس لم تشووجه
ولا لاح للتلويح منه شحوب
- ٢٨ له لولب في العين ليس يديره
لذي ضما حيث المياه تلحوب
- ٢٩ رقيب على شمس النهار بهجته
احتى على شمس النهار رقيب
- ٣٠ إذا نزل الركبان طاب لنفسه
على الجمر من حر الهجير ركوب
- ٣١ تكون ومط النار منه سميكة
من التبر ليست بالوقود تذوب ٢٩

وله في وصف ماء الصحراء الطاف ومغاصات غريبة هائلة
تصف لنا اشتداد الحاجة لاسترجاع الحياة في تلك الصحراء بالماء ...
مهما كان !

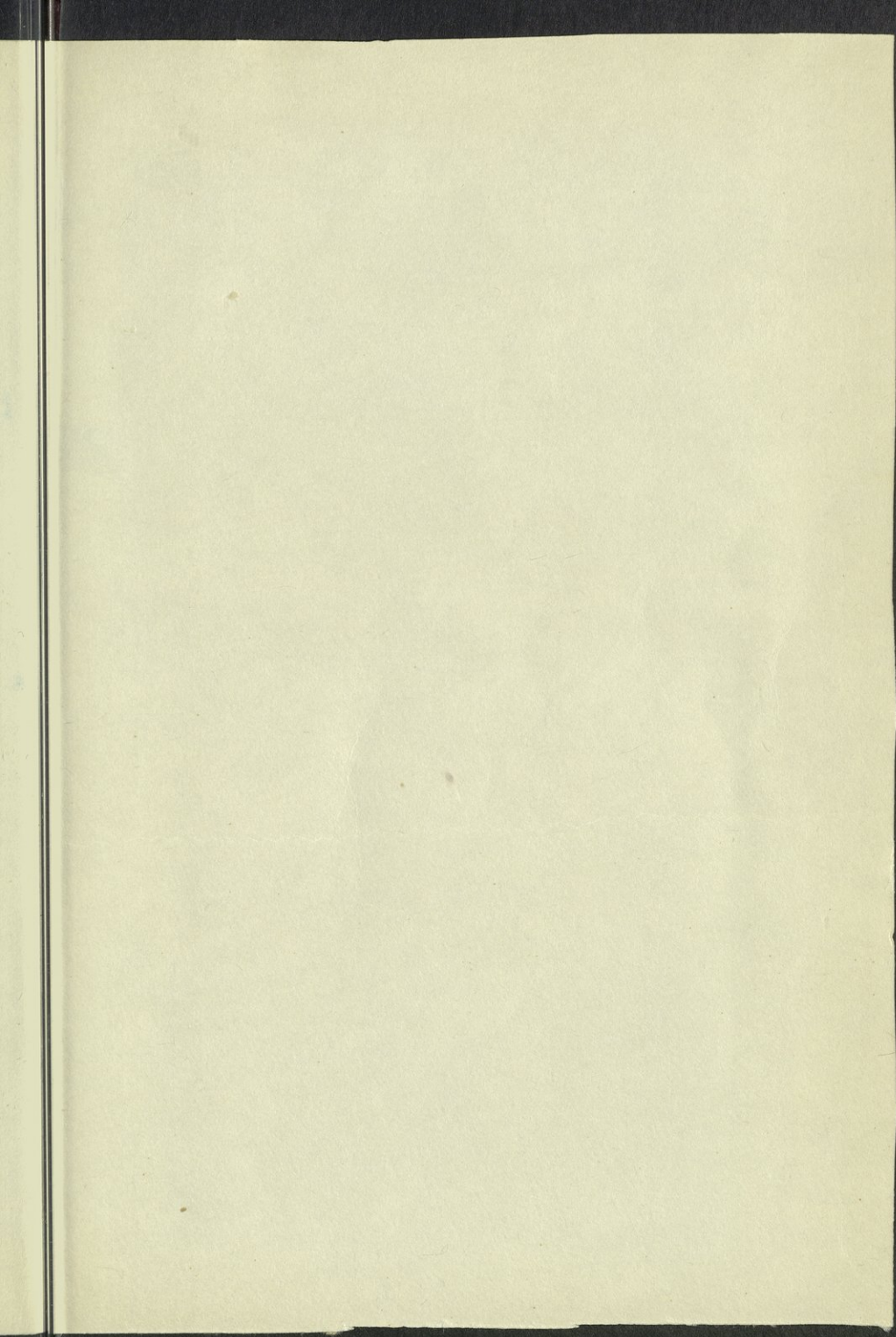
١٨ بيل صدى الارماق في القيض ركيه يملتط يشي القطا عن جماح
١٩ تمزق عنه الكف جلباب عرمض فييدو كنور الصبح تحت ظلامه ٢٧٩
فهذا الماء المخبوء في جلباب الطحالب والعرمض ليكون في
عين الهالك عطشا خيرا من نور الصباح!

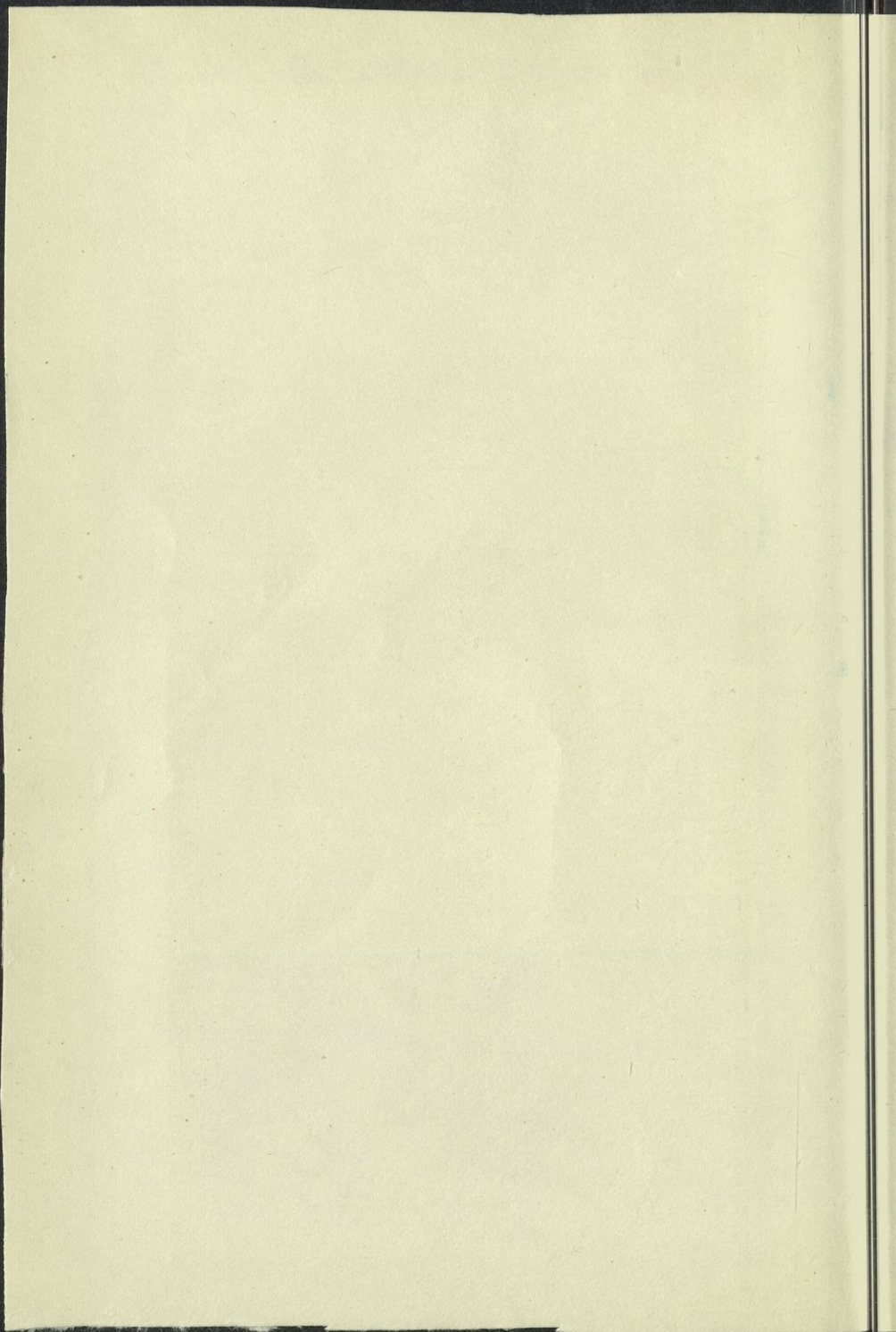
وقد مر بك انه يعتبره ذخيرة الصحراء التي هي ذخيرة
والسذيب • ولكن هذا الانسان الحضري يحسب جميع ما في هاته
الدنيا ملكا له • حتى نفس القطة ونفس الذيب • لان الانسان قد
نصب نفسه خليفة الله في ارضه • وقد خلقها كلها للانسان •



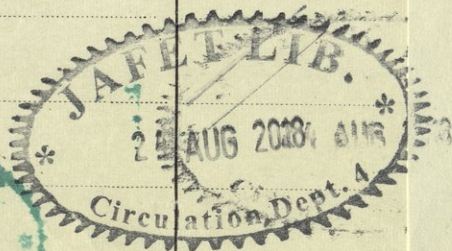
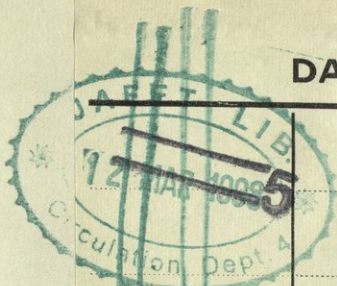
ح
٢٧
في

آته
قد





DATE DUE



الموسى، زين العابدين
الوطنية في شعر ابنم حمديس

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033555

